إنعام كجه جي
مكتبة
صيف
سويسري
رواية
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

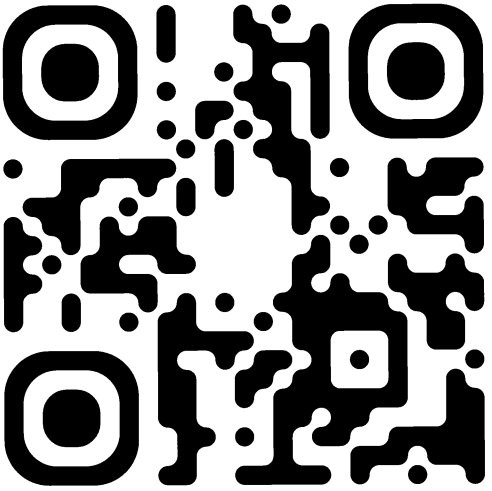

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

صيف سويسري

الكاتب: **إنعام كجه جي**

عنوان الكتاب: **صيف سويسري**

صورة الغلاف: منحوتة للفنانة السويسرية نيكي دو سان فال

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-22-3

الطبعة الأولى - نوفمبر/ تشرين الأول - 2024

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takweenkw

TakweenPH

takween.publishing@gmail.com

takween_publishing

www.takweenkw.com

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

Dar alrafidain

Dar.alrafidain

Dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

إنعام كجه جي

مكتبة
t.me/soramnqraa

صيف سويسري

رواية

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

«يمكنك أن تقرع باب رجل أصمّ إلى الأبد».

نيكوس كازانتزاكيس

«إذا سـددتَ الباب في وجه كلّ الأخطاء فستبقى الحقيقة في الخارج».

رابندرانات طاغور

حاتم الحاتمي

مكتبة
t.me/soramnqraa

نمت وتمنيت أن لا أستفيق. ما عادت آدميتي تستقيم إلا في وضعية الرقاد. أنقلب على جنبي الأيسر ضامًّا ذراعيَّ إلى صدري. جنين عملاق يَثني ساقيه. أغمض عينيَّ فتنتشر أشرعتي. يمكن للروح التي قاست طويلًا أن تأخذ مداها بين الصحو والغياب. وللجسد أن يستريح. تعذَّب وعَذَّب. أغيب وأرى وجهها. أصحو وأتمتم باسمها. لن تعرفني بعد كل تلك السنوات. وإذا استدلّت على ملامحي، هل ستتذكر جارها العنيف العاتي والواقعة التي كانت حديث المجالس؟ يتلفّت البسطاء خوفًا وتحسُّبًا. يستعيدون الحكاية. تتلبّسهم رهبة من يبصر الشيطان أو يحضر يوم الحشر. الرفاق قضوا بأيدي الرفاق. الكلّ منافق متلوِّن. كأن جبهة المدينة وجباههم لم تتلطخ بالدم من قبل. الجبهات والأعناق والأهداب وأظافر القدمين. تلوك أفواه أهل الحيّ ما سمعته الآذان. تشمئز الوجوه وتختفي العيون في المحاجر. يقيس كل واحد منسوبَ الشرّ في داخله. هل

سيكون قادرًا على تنفيذ العمل القذر الذي قام به جارهم حاتم الحاتمي؟

هواجس تكفي لأن تجعلني أنام وأتمنى أن لا أستفيق.

جزاهم الله خيرًا هؤلاء السويسريين. وفّروا لي السرير الذي يحترم قامتي. متران ونصف في مترين. ملعب بشرشف أسرح فيه وحيدًا. أفرد ذراعيّ وأمدّ ساقيّ فلا تعربد قدماي في الفراغ. أطوى الوسادة تحت رأسي وأبتسم للحلم المُشتهى. امرأة تندسّ في الفراش. شعرها أجعد وبين حاجبيها شامة. تريح رأسها على صدري وترفع إليَّ عينين ضارعتين. أضحك من جنون البهجة. من بهجة الجنون. تبرز نيوب الليث. أسناني النافرة التي أحرص على إخفائها. مرّت عليَّ سنوات بدون امرأة. أنثى أتحسس حريرها وتفهم شهواتي. تساهلتُ في الاشتراطات. تراجعتْ أمنياتي مع ضمور عضلاتي. لم أعد أتفحص وأدقّق. أستبقي وأستبعد. صرت أكتفي بما يتيسّر. بمن حضر. بالموجود. أصاب الاختزال روحًا حيّة تسكن جثة طويلة عريضة. كانت كُنيتي في الحزب: الرفيق سور الصين.

أستفيق على هدير الترام تحت نافذتي والفجر ما شقّ بعد. غرفتي هي الأولى في الممر. يهجع في الغرف المجاورة نزلاء آخرون لهم أسرارهم وشهواتهم وكوابيسهم. لاجئون مثلي جيء بهم إلى أرض محايدة بإشارة من مايسترو خفيّ. مسكن جامعي من طابقين لا يعرف سياسة الفصل بين الرجال والنساء. لولا لغطهم

ومناوشاتهم بالصوت العالي لظلّت المدينة منطوية على عذوبة نافورتها الدوّارة. تصغي لهديل الفخاتي فوق أبراج كنائسها.

بازل السويسرية الوادعة، ما كان أغناها عن كلّ هذا الهرج!

سرت في شوارعها مأخوذًا بالنظام. تتحدّاني نظافة عدوانيّة غير مألوفة. تجعلني أحكّ جلد رقبتي. أتحسس آثار حبل وهميّ. ثآليل من زمن ماضٍ. مدينة تتكبّر على أمثالي. تبالغ في تخطيط الطرقات وترتيب الأرصفة. حاويات نفاياتها مزهريات. بالوعاتها طاسات عطر. ومناطق العبور مخطّطة بلون أصفر يحترم نفسه. لا هو فاقع ولا مُضمحلّ. يضع العابر قدمه عند حافة الطريق فيتوقف السير كلّه. لا لزوم لشرطيّ مرور والإشارات الضوئية مجرد ديكور. بازل كلها رهن قدميَّ. أقطع الشارع متمهلًا وهم الممتنّون. يمكنني أن ألاعبهم وأتشاقى معهم. أن أهمّ بالعبور ولا أعبر. أترك السيارات والحافلات متوقفة في انتظار قراري. سائقون متأدبون وراء زجاج نوافذهم. لا زمّار، لا إصبع نابية أو شتيمة.

لم أتآلف مع مدينتي الجديدة في أيامي الأولى. وجدتها مضبوطة ضبط العقال على رؤوس المشايخ. مُتكتّمة رزينة بنت ناس تعرف قيمة نفسها. تنتظر عريسًا أفضل ممن تقدّم لها. حتى طباع أهلها عكس طباعي، أنا الميّال إلى مرابع الفوضى. أحلم بنساء تلعلع ضحكاتهن في سَكَنات الليالي. يتفرجن من سطوحهن على سكارى يتبولون في عتمة الزوايا. يبللون شعارات خُطّت على جدران تعتّقت جيفتها.

قرأت في الدليل السياحيّ أن بازل عاصمة التجديد في الفن. لكنني في أيامي الأولى لم أرَ سوى عجائز يقفزن إلى الترام برشاقة شابات. لماذا يقفزن أصلًا وعتبة العربة تلتصق بحافة الرصيف، لا أعلى ولا أوطأ؟ أرستقراطيات بقبعات كلاسيكية، طالعات من صفحات المجتمع في المجلات. خدود وردية وابتسامات مزمومة. ملكة بريطانيا مرّت من هنا وخلّفتْ قبيلة.

لولانا لما عرفت الأزقة العريقة صخب النواسيّين الأعاريب. خرجت من الحانة، ذات ليلة، مع صاحبيَّ الدكتور بلاسم وغزوان البابليّ. كنت قد تحوّلت إلى قنبلة كحولية. وبلاسم ليس النديم المثاليّ، ولا البابليّ. يكتفي الأول بقدح من البيرة يتفرّج عليه ثلاث ساعات. يدرسه من جوانبه وكأنه ينوي أن يرسمه. والثاني متديّن يصلّي ويصوم ولم يكن يقرَب الخمرة. ثم تكفّلت سنوات اللجوء بتخفيف تشدّده. يطلب عصير طماطة على أنه «بلودي ميري». تبحبح قليلًا وصار يجالس معاقري المنكر. اخترع لنفسه فتوى من قبيل أن الضرورات تبيح المحظورات. إذا لم يعاشر أهل الكأس فلن يجد عراقيًّا يصاحبه في البلد الغريب. الكؤوس مطافئ الخيبات.

خرجنا وأنا ثقيل الخطوات. يسندني رفيقاي حتى موقف الترام رقم ١١. أدندن بالأغنية نفسها:

- تجونا لو نجيكم؟

أسطوانة تدور بالسرعة البطيئة. يجاريانني ويمطّان معي اللحن الساذج:

- تعالوا يا حبايب هلا بيكم.

نغيّر إيقاع الأغنية ليلائم المزاج. مزاجي لا مزاج المدينة. وحده النبيذ ينسيني حديث تلك البلاد. يؤاخي بيني وبين غزوان. يكنس غبار الخلاف ويدفع به تحت مائدة الشراب، مع قشور الفستق. لا أعود أنا الرفيق العروبيّ ولا يعود صاحبي من حزب العمائم. سينطرح كلٌّ على فراشه وننام حتى الضحى. وحين نستيقظ ونغسل وجهينا. يرتدي كل منا طباع العقائدي العنيد.

وبازل كانت جميلة في ذلك الصيف من أواخر الألفية، عروسًا خارجة من حمّام مطرها. خضراء كفردوس. لكن روحي يمكن أن تطلع لو عشت فيها وحيدًا. الجنة بلا ناس ما تنداس. قالها لي بلاسم، الطبيب العراقيّ الشاب الذي أنستُ إليه منذ أن تلاقينا. لم يكن صاحبًا بمعنى الكلمة. فهو في مقام الأستاذ بيننا والمُشرف على مجموعتنا. لم يخطر ببالي أن أكون تلميذًا لمعلم يصغرني بعدد من السنين. لعله في سنّ أبنائي. ثلاثة شبان تفرقوا في القارات. لا أدري إن كان عليَّ أن أتقبله كأستاذ أو كطبيب. قال لنا إنه مجرد صديق جاء ليساعدنا.

يساعدنا في أي شيء؟

لماذا لا يعترف بأنه جاء ليعالجنا؟

ممَّ يعالجنا؟

والدنيا التي رفعتني ثم لطمتني ها هي ترأَف بي أخيرًا. تركتني

صحيحًا بدون علل. ما زال جسدي الضخم يتحمّل الضربات. اعتمدوا عليَّ في المهمات الصعبة بفضل عضلاتي. ولم يكن ارتفاع ضغط الدم إلا مزحة ودلعًا. حبة من «سيفيكار» في الصباح وتعتدل الأمور. أراقب طعامي ولم أعد أعاقر ابنة الكروم سوى مساء السبت. هكذا سمّاها شاعر من عندنا. انتهت سهرات المطاعم والبارات مع الرفاق. أتت عليها الحروب وسنوات الشحّ. نقلتها من «كازينو الخضراء» و«خان مرجان» إلى أوحال الخنادق. ليالي الخفارات. الإنذار باء والإنذار جيم. شغلتني الجولات الليلية في الأحياء المشبوهة. مداهمات العناصر الهدّامة. مراقبة الجماعات الدينية. جلسات التحقيق في مراكز التوقيف. التوسّلات والعويل والشتائم واللكمات. قسوة ضرورية اعتدتها بالممارسة. قيل لنا إن البلد يحتاج قبضة لا تلين. قلنا: آمين. أعين لا تنام. تسهر لكيلا يضيع الوطن. يتناهبه المتآمرون وعملاء الإمبريالية. الشعوبيون والمجوس والصهاينة والماسونيون والانفصاليون وأعداء العروبة. أستطيع أن أدرج قائمة لا تنتهي بكل الخصوم، المرصود منهم والمُتخيّل.

أنا الرفيق سور الصين. حفظت الدرس جيدًا وتربيت على لغة الكراسات الحزبية.

مقهى الوفاق

في مقهى بغداديّ بلّوريّ البياض، آخر شارع الرشيد، قبل وزارة الدفاع بقليل، جلس الملك غازي يلعب الشطرنج مع عبدالكريم قاسم. صدام حسين يشرب الشاي في إستكان نوري السعيد. سليمة باشا تغنّي ويونس بحري يضبط لها الإيقاع. هناك تراهم جميعًا يتقاسمون التخوت. الرفيق فهد والسيد الصدر والوزيرة نزيهة والمتمرد السعدي والعقيد المهداوي. يحيط بهم كثر غيرهم. من أمثالهم. لا غشاوة على عيني الرائي ولا مونتاج يتلاعب بالصور. يقصقص ويلصق كما يشاء. كأن مقهى الوفاق صهريج تنصهر فيه العداوات. يصبح اللامعقول معقولًا. تجفّ سواقي الدم التي لوّثت دجلة وعكّرت الفرات. سمّمت أسماك الشبوط ولوَت أعناق النخيل.

كلهم صاروا تحت التراب. تذرو رمادهم الرياح الأربع. ذاكرة عنود تستخرجهم من لحودهم وتلملم غبارهم. تعجنه بحفنة من ماء خُلّبيّ. تسحب كراسي الحكم من تحت مؤخراتهم وتجلسهم

على مقاعد المقهى. لا مهرب، بعد عمر معين، من تداخل الأزمنة. تحضر شخصيات غابت في القرن الماضي لتجالس من بلغ مشارف قرن جديد. نساء ورجال مسحوبو الذاكرة. بيض القلوب كاللبن الصافي.

آخ من الخمسين! عتبة حمّالة أوجه. فيها يفقد المرء صلابته. يصبح رجراجًا. يهادن ويقبل كل الاحتمالات. يسخر من ماضيه ولا يزعجه أن تُشطب فصول منه. قناعات بائدة وحماسات عنترية وقبلات مسروقة.

«رُدّني إلى بلادي

مع نسائمٍ غوادِ

مع شعاعةٍ تغاوَتْ

عند شاطئ ووادِ».

رُدّه. ولن تأخذه عنها سِنة ولا نوم.

البونبون

الصباح موعد سونيا. تمرّ عليهم الشابة الجميلة في ساعة الإفطار. تضع أمام كلٍّ منهم قدحًا صغيرًا فيه حبتان برتقاليتان وواحدة صفراء. تدور بينهم لتتأكد من أن كلًّا منهم ابتلع دواءه. لم تكن سونيا ممرضة ولا من إدارة المركز. تتفنّن في ألوان ثيابها ولا ترتدي صدرية بيضاء. تترك شعرها الأشقر مربوطًا بشكل عشوائي خلف رأسها. مهمتها أن تراقب انتظامهم في تناول البونبون. هكذا كانت تسمّي الكبسولات البرتقالية والصفراء. يستقبلونها بابتسامات مهذبة ويودعونها بنظرات نهمة.

ثلاث بونبونات لكل واحد في الصباح. ثم بونبونة خضراء بعد وجبة العشاء. يبتلعون وهم راضون. لم يجبرهم أحد على المجيء إلى هنا. طُرحت عليهم الفكرة ووافق عليها من وافق. وضعوا تواقيعهم على أوراق تفيد بأنهم فهموا المطلوب ويلتزمون بالتنفيذ. إجازة صيفية مغرية في سويسرا. ضيافة كاملة ومصروف مُجزٍ للجيب.

باطنيًّا، التهم حاتم الحاتمي سونيا بعينيه. تعلّم في أوروبا كيف تكون نظراته بريئة تخفي نيوب الليث. مسح قامتها جيئة وذهابًا مثل جهاز السكان. وسادة ممتلئة ليّنة يقسمها خصر دقيق. فيها شيء يردعه عن التودّد إليها. تسريحتها الفوضوية تذكّره بواحدة من قديماته. ماذا كان اسمها؟ يغيب الاسم ويحضر توحّش النظرات. الكحل السائح يلوّث الجفون الدامعة. تأسره أعينهن وتمسك بعنان رغباته.

كانا في سيارته يقصدان بساتين الفحامة. أول خروج لها معه. مضى يتباهى أمامها بفتوحاته في التنظيم. أفكاره التي جاءت إليه بشهادات الشكر والتقدير. بسالته في المعارك وأنواط الشجاعة. تطلعت إليه باستغراب وهو لا يتوقف عن الكلام.

- أستاذ حاتم، كلامك كله سياسة!

أعجبته نضارتها. حرارة صباها. كانت تدرس في كلية التربية. أناقتها تناسب مركزه. تصوّرها ذكيّة إلى أن عرضتْ عليه قصائدها الساذجة. امتدحها مجاملة وكان صادقا في رغبته في الارتباط مجددًا. عانى من تمنّع زوجته واحتقارها إياه. أصدرت عليه حكمها بأنه مجرم. مريض ومجرم وحيوان. فكّر في تطليقها ولم يفعل. أوشك أن يهجرها وهما في شهر العسل عندما سخرت من لهجته الريفية. غَشمرة؟ طلبت إليه أن لا يقلب القاف غينًا. أن يتعود الكلام مثل أبناء العاصمة. قَشمرة لا غَشمرة. تحدّاها وراح يبالغ في تأكيد اللكنة التي نشأ عليها. انغلابات. نحن أغوياء. الغرش الأبيض

ينفع في اليوم الأسود. اطبخي لنا مغلوبة. هات غوطية بيرة من الثلاجة.

اختارها من بين كثيرات. خريجة لغة إنجليزية وبنت أوادم. عمها سفير سابق وعمتها مديرة مستشفى. دعاها وأهلها إلى زيارتهم في مزرعة أقاربه في الفحامة. استقبلوهم بالذبائح على عادة العشائر. انكمشت العروس ولم تمد يدًا إلى صواني القوزي. اكتفت بالخبز والفجل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ما تحبين الغوزي؟

- خطيّة الخروف.

ابتعدا في البستان. قطف زهرة من شجيرة بنت القنصل وزرعها في شعرها. سلّمها في اليوم التالي رسالة رومانسية. كتب فيها أن شجرة التوت عاتبته، من بين بقية الأشجار المثمرة، لأنه لم يعرّفها إليها. وشجرة الرمان تمنت لو تداعبها. وورد القرنفل قاطعه لأنه لم يقطف منه طاقة لها. قرأتها وسألته:

- من أين كل هذه الرغّة... أقصد الرقّة؟

يمكن حتى لسور الصين أن يكون رومانسيًّا. لكن تقليدها للهجته لم يعجبه. انتهى شهر العسل والمناجيات عندما أصبحت أمًّا تناغي طفلها. لم يسمح لها بالعمل وهي من جانبها اكتفت بأن تكون امرأته. زوجة رجل متنفّذ. حملت عنه أعباء البيت والأبناء. أحبته مع الوقت واندمجت في دورها. صانت أسراره ومهماته الخاصة

وصبرت على غياباته. لكنه بقي يتوهّم أن في عينيها استخفافًا. لم يكن واهمًا. أتعبته بتكبّرها عليه.

وطوال سنوات عشرتهما لم تمتد يده إليها سوى تلك المرّة. كان قد تلقى بزّة عسكرية هدية من القائد. يُكرّم الشجاع منهم بواحدة من بدلاته ذات اللون الزيتوني. تكرّش الرفيق من الويسكي وضاقت البزّة على خصره. امتنع عن الشراب والطعام لأسبوعين. صام لكي ينحشر في العزيزة بدلة العزيز. يضيق عليه الكتفان فيتحرك محنطًا كيلا ينفتق القماش. ارتداها وتباهى بها أسبوعًا. ثم ثانيًا. ولم يلبس غيرها. صافح مواطن كوريّ زعيم بلاده كيم إيل سونج ولم يغسل يده لثلاثة أعوام. هل يكون كيم إيل البطيخ محبوبًا ومبجلًا أكثر من قائده؟ أقسم ألّا يرسلها إلى المكوى. استاءت زوجته من رائحة عرقه. أخذت البدلة ذات ليلة ووضعتها في الغسّالة. علّقتها لتجفّ فوق السطح. استيقظ وزأر عليها:

- كيف تجرأت؟

- ريحتك صارت مثل صنان البزّون.

هبطت كفّه على وجهها وانفجر الدم من عرق في صدغها. اتصل بشقيقته لتسعفها. غادر البيت لكيلا يتأخر على اجتماع الرفاق. عاد متجهمًا ولم يسمع عتبًا منها. تعتصم بصمتها. أسلوبها القاتل في ساعات النشوز. وهو من جهته يلزم كبرياءه ولا يصالحها. أهي الكرامة التي زيّنت له الزواج مجددًا، أم خيلاء المنصب؟ توطدت مكانته السياسية وأراد عروسًا يدفئ بها برودة فراشه. شابة ينتقم

بها من هجران زوجته. سيفرغ في حضنها البخار الفاسد المتجمع في صدره. مرجل يغلي وينضح بما فيه. ما عاد سوى عتلة في عجلة الحزب.

هيبته تغري النساء. أخذ المحبوبة الصغيرة للنزهة ذات مساء ربيعيّ رائق. سار معها وبينهما من المسافة ما يسمح بلمسات ينتظرها أو يفتعلها. كانت مدينة الألعاب أمامهما. ما رأيك؟ ضحكتْ وبان سنّها البارز اللذيذ. ناب سعاد حسني. عبرا إلى المدخل وتوجها نحو دولاب الهواء. ارتفعت بهما القمرة الملونة فتسارعت النبضات. ثم هبطت فهبط قلباهما. احتضن كتفها وهما طائران في فضاء ساحر. شمّ شعرها الذي غطى وجهه. أراد التهام شفتيها لكنها أدارت وجهها. وقعت قبلته على عنقها. سويعة في مدينة الألعاب في الزوراء منحته عيّنة من مذاق الحوريات. لكن المحبوبة الصغيرة كانت تتطلّع إلى ما هو أبعد.

رجاها أن تعدل عن الشِّعر فاستهولتْ الأمر. لعلها تصوّرت نفسها خليفة نازك الملائكة. تقتحمه بنظراتها وتطالبه بمزيد من التدليل. تريد منه غزلًا مائعًا. سهرات في السينما. أن يرتدي سراويل عريضة على المُودة. لا تفهم أنه رجل مهمات صعبة. النساء كثيرات والعقيدة واحدة. يأكل التنظيم نهاراته ولياليه. لا يريد زوجة تسأله أين يذهب ومتى يعود. كان يقضي النادر من ساعات الصفو في الشراب. يتردد في المواسم على راقصات الغجر ومرابع الكاولية. أعجبته واحدة منهن واختلى بها. أهداها زجاجة من روح الورد.

سكب عليها العطر المركّز ونام معها. أزكمتها الرائحة وغطّت أنفها بشعرها. غشيمة. لا تفهم أنه العطر المفضل لزوجة مسؤول الفرقة.

اختفت الغجرية الفارعة من خيام جماعتها بعد أسابيع. قيل له إنها أوقعت في هواها بريطانيًّا من موظفي الأمم المتحدة. أخذها معه إلى لندن وجاء لها بمن تعلّمها اللغة. لكنها عادت بأسرع مما راحت. تتربّع بين ساقيه وتحكي له عن الدلال الذي عاشته في بلاد الإنجليز. تفاهمت مع حبيبها بالإشارات والغمزات. وفي الفراش لا حاجة إلى لغوّ. أخذها الإنجليزي ذو العينين الملونتين إلى دكان كبير اسمه سلفريج. سفرجل. صلفيج. صفرطاس. لا تعرف كيف تنطقه. اشترى لها زجاجة من عطر كرهته وحفظت اسمه. «تي روز». بخّت منه بخّتين على راحة يدها فتقيأت وسط الدكان. فوق سيقان الحريم البيضاوات.

يمرّر ذكرياته في المصفاة ويختار البهيج منها. تطارده أيامه البغدادية حتى بازل. جاءها للإقلاع عن داء التقيؤ الحزبي. دخل التنظيم وهو طالب غضّ. صدّق أنه مقاتل يستريح بين معركتين. جندي في كراديس تمشي نحو المستقبل. يشتري الكتب المستعملة ويقرأ الشعر وتأخذه الحماسة. ينتشله الأدب من النزيزة التي خاض فيها. ثم جاءت السياسة. عرف طريق الحلقات السريّة وهو طالب في الثانوية. انتقل من الريف إلى المدينة وانشغل بالدراسة. أقام في مساكن الطلبة وأعجبته نفسه. أيقن أنه مواطن ذو رسالة. جهة ربانيّة سلّمته الوطن عهدة وأوصته به.

حين تقدّم في المراتب انتسب إلى كلية القانون. نال الشهادة بدون دوام يُذكر. دخل دورة لضباط الأمن صقلت مواهبه الخاصة. اكتسب سلطة في الشارع وفي العائلة. يعود إلى ولايته في الإجازات ويفرض سيطرته على البيت. يسمع أشقاؤه كلامه ولا يجادلونه. وأبوه الرجل العجوز يخشاه مثلهم. لا يأمن للكلام في حضوره. يجتمع برفاقه وينادي أحدهم الآخر بلقب «أبو الشباب». يُسكره النداء.

لكن شيئًا ما، غير مفهوم، جعل الأمور تدور عكس الساعة. يحدث في الأفلام أن تقوم القيامة وتحترق الكرة الأرضية. يتطاير الرماد بعد سنوات ضوئية ويبدأ عالم مغاير. يسمّونه اليوم التالي. والبطل السابق يعود بطلًا لاحقًا. هل تستلهم الشاشة الحياة أم تقلّد دنياه ما يجري في السينما؟ انفرطت البلاد التي تصوَّرها عِقدًا فريدًا. يا دنيا فيك العجب. قفز من السفينة قبل الغرق. كثيرون قفزوا بالأجنحة وبالسيقان وبالزانة. سافر إلى ألمانيا للعلاج ولم يعد. معدة الرفيق سور الصين متقرحة. تنتهي فترة الإجازة المرضيّة ثم تتجدّد.

فكّر في أن يطلب اللجوء وعدل عن الفكرة. لن يُصدّقه أحد إذا طلب لجوءًا سياسيًّا. جماعته يحكمون البلد. كتب في طلب اللجوء الإنسانيّ أنه كان مجبرًا على تنفيذ أوامر تخالف نزعته المسالمة. أصابت القرحة معدته من شدّة معاناته. كان ممزقًا بين الواقع المرّ والضمير الحيّ. يكتب ويسهب في شرح حالته. يبتسم في سرّه

ويزهو بموهبته في التأليف. أستاذ في النفاق. ملأ ست صفحات وهو يسمع ياس خضر يغني في الخلفيّة: «جذّاب دولبني الوكت بمحبتك... جذّاب».

يرقد في بازل يفكّر في بشيرة. يتمنى ألا ينهض من غطسته. والرفاق؟ ما عاد يعرف أين صفا بهم الدهر. بل كيف صفّاهم. الذي قُتل والذي استشهد والذي خان والذي انتحر والذي هجّ. وهو بين صحو وغياب يغلّس على هواجسه فتطارده مثل صِلّ. يخشى أن يلتفّ حول عنقه ويزهق أنفاسه. شفاعته الوحيدة أنه لم يبدّل قناعاته. حفظها في الدرج الأعمق من روحه. بقجة الممتلكات الثمينة. تمسّك بالحزب حتى بعد أن انفصل عنه. لو أنكره يُنكر نفسه.

مات رفيقه أبو مُنقذ بين يديه وهو يلهج بالشعار. أصيب بشظية في الفاو. حمله على ظهره إلى الإسعاف. كان ينزف بغزارة والسائق يكوّر منشفة قذرة ويدسّها في نافورة الدم. يلحّ عليه:

– تَشاهَد يا رجل. أنطق الشهادتين.

نطق أبو مُنقذ بنصف شعار الحزب وشخر شخرة أخيرة.

بشيرة حسّون

هذه نظرة تعرفها بشيرة منذ أن كانت في القماط. تفسّرها وتقرأ معانيها كما العرّافات في الفنجان. رمقها سريعًا ثم أغضى. لمحة تكفي لأن تصيب الهدف. طود شامخ يرى نفسه فوق الجميع إلا حين يتطلع إليها. كفيف تشفيه المعجزة. يتحول العمى إلى نور كاشف. يبزغ من أسفل حاجبيه فناران مضيئان يدوران دورة كاملة ليستقرَّا على وجهها.

وقعت عليها عينا حاتم الحاتمي فتخلخل شيء في داخلها. حمامة نامت طويلًا وها هي تتململ في عشّها. تحرّك جناحيها في رفرفة تدغدغها ولا تزعجها. حاولت أن تداري وتنكر تأثير نظراته فيها. إنّ من مكافآت أواسط العمر أن تشعر بأنها ما زالت مشتهاة. لم يترك لها اضطراب حياتها كثيرًا من الثمار. فقدت الشجرة فاكهتها. أوشك نسغها على النضوب. ثم يأتي هذا الطود ليعيد صبّها أنثى. رجل تحجب قامته ضوء الشمس. ينكمش خفرًا مثل العذراوات حين تواجهه عينًا بعين. يتلعثم ويضيع لسانه.

وعدتْ بشيرة حسون نفسها أن تستريح في بازل. جاءتها الدعوة الغريبة من دائرة رعاية المهاجرين وترددت في قبولها. لم تفهم الغرض من الإقامة الصحية في بلد مجاور. قيل لها إنها دورة صيفية للترويح عن النفس. ستتخلّص من هواجسها القديمة وكوابيسها. تصبح قابلة للاندماج. وهي تنفر من فكرة الاندماج ولا ترى أنها مُهاجرة. المُهاجر هو من يقرر هجران مسقط الرأس دونما ضغوط. أما هي فلاجئة لا تملك قرارها. دُفعتْ إلى المغادرة دفعًا. ستحمي حياتها وتوفّر عيشة آمنة لابنتها. ليس لديها غير سندس. شوكة انغرست في رحمها رغمًا عنها ثم تفتّحت مثل جوريّة.

اشترطت أن ترافقها ابنتها لكي تتملص من الدعوة وفوجئت بأنهم وافقوا. ستذهبان في إجازة وتتعرفان على البلد القريب الجميل. سويسرا بحيرات وجبال وغابات وإعلانات سياحية. أرض سعيدة تتعاقب عليها، بأريحية، الفصول الأربعة. صيفها الرائق ونسائمها العذبة جعلتها قبلة العرب الميسورين. يسافرون بنسائهم وعيالهم وخدمهم وحشمهم إلى زيورخ ولوزان. يتنزهون على ضفاف بحيرة جنيف. يأكلون القواقع والشوكولاته ويقتنون الساعات الثمينة. أثرياء هم في نظر حزبها طابور خامس. مصاصو دماء الشغيلة. لا بد من تأميم ثرواتهم ومصانعهم. انتزاع أراضيهم وتوزيعها على الفلاحين وأبناء الشعب. تنحشر مفردة الشعب بين كلمة وأخرى. مصلحة الشعب. تثقيف الشعب. كرامة الشعب. الموت في سبيل الشعب. الشعب السعيد الدائخ المشرّد بين قارات الكوكب.

وافقت على الشروط ووضعت توقيعها على الوريقات. ستضحك على دائرة الاندماج وتذهب لتمدّ ساقيها في شمس بازل. تدخل المتاحف العريقة وتشتري لسندس ساعة أنيقة. صور زاهية كثيرة خطرت لها ولم تتوقع أن تلتقي عراقيين أغرابًا من مَهاجر غريبة. من كل قطر أغنية. جيء بهم ليعقدوا جلسات أحاديث ومكاشفات. تموت من الضحك وهي تستمع إلى احتدام قصصهم وتشابك أصواتهم. كأنهم نصارى في حضرة كاهن الاعتراف. يقرّون بخطاياهم ويستسلمون لتبكيت الضمير. كلام كثير يراد منه إسقاط الحِمْل الذي يُثقل كواهلهم. تطهيرهم من ماضٍ أحمر أو أخضر أو ليموني. كل الألوان تتدرج هنا حتى البنفسجي. ذاك الذي يكتبه الشعراء ويغني له المطربون. لون عيني زهرتها سندس.

رأت الدكتور بلاسم منبهرًا بابنتها. يقرّب وجهه منها كأنه يريد الدخول إلى بؤبؤيها. وكانت البنيّة سعيدة لأن عينيها بنفسجيتان مثل ليز تايلور. هكذا أخبرها أبوها. أي أب منهم؟

لا أحد غير بشيرة يعرفه. تغريبة الهرب توجع القلب وقلب المُحب أعمى. خرجت من التوقيف ولم تجده. لو كان موجودًا لاتصل بها. لملم طشّارها. لاحظت أمها تحولاتها وسهومها. «صفنة تجيبني وصفنة تودّيني». نوبات بكاء وضحك هستيري. ثم راح بطنها ينتفخ والفضيحة تطرق باب بيتهم. دبّر لها الحزب سبيلًا للسفر. وصلت بيروت وتزوجت مناضلًا من رفاقها عذّبوه في المعتقل. أعطبوا رجولته وخرج مكسورًا. رجل يشبهها. لم يقل

لها إنه يحبها لكنها مالت إليه. مثقف مهذّب حيث لا تنفع ثقافة ولا تهذيب. أشفقتْ على إنسان منزوع الروح. درس في موسكو واصطادوه حال عودته. تصوّر أنه سيموت تحت التعذيب. يشرب ويبكي. يحتضنها وترتجف كفّه وهو يمسح على بطنها المنتفخ. يحتويها لأنها مغتصبة مثله. حاولت أن تُسقط حملها. تئد ذكرى انتهاكها. ثم تمسكت بالجنين حبل نجاة. حجّتها ودليل صمودها. اغتصبوها ولم تعترف. تلوثت لكنها خرجت نظيفة من عار الوشاية. ينحني الرفاق لتضحيتها، والرفيقات.

أجادت دورها واشتهرت قصتها. صارت رمزًا في مواجهة الطغيان. كتبوا عنها في صحف فرنسية وروسية لا تفهم حروفها. يسكر زوجها وينتحب وتشاركه البكاء دونما صوت. خرساء تطمر حزنها في صدرها وصدره. طلب منه الحزب أن يسترها فسترها. لم يكن وضعها يسمح بالتردد أو الاختيار. تزوجته وبعد خمسة أشهر ولدت سندس. لم تعرف البنت أبًا سوى الرفيق الشهم الذي احتضنها وأعطاها اسمه.

لا أحد يقرأ أقداره. يهجس بما سيكون عليه العمر الآتي. تغيّرت أحوال زوجها بدون مقدمات. سكنت رأسه العفاريت. أم أنه كان مريضًا مختلًّا من قبل؟ يسرق الكتب من المكتبات ويدسّها في حقيبة يدها. يُعرّضها لمواقف محجلة. يطلب منها أن تداوم على قراءة أدب المقاومة. يُتأتئ بالأسماء الكبيرة لكي يُشعرها بجهالتها. ضآلة تجربتها قياسًا بمأساته. يتغرغر مثل الديك الرومي بماركس

وبوشكين وبولجاكوف. يثور إذا قالت إنها تعرفهم. سمعت بهم من أيامها في بغداد. يشرب الفودكا المغشوشة ويبصق على نابوكوف. يجادلها في تروتسكي فتصعد الحمى إلى رأسها. يسألها قبل النوم، وهي تفكّ اشتباك رموشها من الماسكارا، إن كانت قد قرأت تورجنيف. تكتم ضحكتها في المخدّة. تأكدت أن لديها مشكلة مع أهل الديالكتيك. هناك، حتمًا، مؤامرة ضد سعادتها. ينفّذها جواسيس ذوو أسماء صعبة ووجوه حمر. يطلعون عليها من بطون الكتب. تساير زوجها وتجرّب أن تقرأ مثله. النصوص كالحصى الصلد، يصعب هضمها.

يكون مهذبًا إلى أن يسكر. تبعد القنينة عنه فيشتمها. تغلق أذنيها وهي تتضوّر إشفاقًا عليه. مسخ آخر من مسوخ السياسة. ضحايا التوربينة الحمراء. أمثاله كثر في دول اللجوء. وحين يصحو يغضّ البصر ويغرز عينيه في نقوش السجادة. يتجنب زوجته وابنته. ابنتها.

عمرها تمزّق بين بيروت ودمشق وعدن. في كل محطة تتراكم مشكلات جديدة. والزوج صار شبحًا. ماتت الحنيّة بينهما. يشرب ويعيّرها بخطيئتها. كأن من اغتصبها رأف به. وهي كانت مستعدة لتحمّل كل تجاوزاته إلا المسّ بشرفها. ذاك المسفوح على مذبح الحزب. ترى ابنتها تكبر وتقلق عليها. تتوسّل به أن يدبّر لهم سبيلًا إلى أوروبا. وصلوا إلى قبرص وكانت سندس تغادر طفولتها. راودها أمل بأن تتحسن علاقتها به لكنه تركهما في اللحظة الصعبة.

لملم أغراضه القليلة وكتبه وسافر. انقطعت أخباره وعاشت مع البنت في قلق ووساوس. لا بد أن هناك علّة فيها تجعل الرجال يتبخرون. ثم سمعت أنه ظهر في براغ. تزوج هناك بطليقة أحد رفاقه. يلعبون في المنافي لعبة الكراسي الموسيقية. يستولي الواحد منهم على أول كرسيّ يغادره صاحبه. مات حبّه في داخلها دفعة واحدة. مثلما يتوقف القلب غفلة بالسكتة. هل كانت تحبّه، شريك الأمر الواقع؟

تدخّن بشيرة سكائر رخيصة وتتذكر أن زوجها لم ينطق بكلمة الحب إلا وهما في مطعم شعبيّ للسمك على خليج عدن. المقاعد مقتطعة من جذوع النخيل والطاولات مغطاة بصفحات الجرائد. يأتي صبيّ بالسردين الصغير المقلي ويلقي به فوق الورق. يختلط الزيت بحبر الصحيفة وصور الزعماء والمانشيتات النارية. وفي تلك الليلة الخانقة برطوبتها تناول كفّها وقبلها. باح لها بمشاعر ناعمة. قال إنها المرأة الحقيقية الوحيدة في حياته. هي ستره وغطاه. تألمت له ولم تفرح. تأخر كثيرًا. تلفّتت حولها ورأت سندس تخوض حافية في المويجات المتهاونات. خلعت بشيرة نعليها ولحقت بابنتها.

حلّال العُقد

لا يعرف لماذا ينادونه الأستاذ بلاسم. ربما لأنه المشرف على المجموعة الآتية إلى بازل. عمره أصغر من أعمارهم ورأسه أخفّ من رؤوسهم. لا يحمل أثقال جماجمهم المملوءة بالشيش بيش. يتباهون بعقائد هي بالنسبة إليه خزعبلات. أرهقتهم الحمولة وجاءوا يطلبون المساعدة. هكذا قيل له. ستعمل معهم على تقشير عقولهم المتيبّسة، طبقة بعد طبقة.

من خبرته في المهنة اكتشف أن السعادة هي أن يترك المرء قشرته ويستبقي اللبّ. يتأمله ويُصادقه. كان طالبًا يتمرن على معالجة نوع معين من النوازع حين تأكد أنه إنما يتدرب على نفسه. يعالج نفسيته. لم يعجبه لقب دكتور. صفة تفيض عليه وتترهل. توحي بصدرية بيضاء وسماعة وجهاز لقياس الضغط. أدوية وروائح مطهّرات. تلك ليست عُدّته. قال ذلك لأستاذه فنصحه بأن يختار أي صفة تناسبه. المُعالِج مثلًا. وحتى هذه لم ترِقْ له. لعلها تليق بالمُدلّكين وخبراء العلاج الطبيعي. حكى لسندس فاقترحت عليه تسمية أحبّها. قالت له:

- أنت حلّال العُقَد.

- تعجبني التسمية. كلّ ما فيك يعجبني.

أحبّ الاقتراح وشغف بسندس، ابنة مريضته الست بشيرة. والمبدأ هو أن يفصل الطبيب بين مجال عمله وعواطفه. يرفع عقله عن قلبه. لكن اليمامة البكر ذات العينين الملّونتين ليست مريضة. وبهذا فإنها لا تقع في دائرة المهنة.

رأته ذاهلًا، في لقائهما الأول، يقترب منها ويدقّق في وجهها:

- عيناك بنفسجيتان!

- هذا ما كان يقوله بابا.

لم تأتِ بشيرة حسّون بحقيبتها فحسب. جاءت معها سندس. كانتا آخر من التحق بالمجموعة العراقية في بازل. وهو سيبقى ينادي الأم بلقب «ست» مع شعوره ببلاهة المفردة. تشغله التسميات وتأخذ وقتًا من تفكيره. بحث عن صيغة أخرى للتخاطب ولم يجد ما يناسب سيدة مثلها. تبدو متحفظة إنما على غواية. لن يناديها «مدام» ولا «أستاذة» ولا «أم فلانة». وضعها تحت مجهر التحليل. بدت له روحًا شاردة تتمرد على الألقاب الرصينة. تثقب الست بشيرة القالب وتخرج إلى حياة أرحب. لعل أصدق وصف لها هو ذاك الذي سمعه من حاتم الحاتمي. قال بالفصحى إنها امرأة تخبز نزقها بخميرة تجاربها. أما البنت فلم يكن يتحرّج من مناداتها باسمها المجرد. جميل يوحي بقدوم

الربيع. صبية تنعم بطراوة أول الشباب، لم تبلغ مراتب الفتنة الكامنة في والدتها.

وقف الدكتور بلاسم بين بين. حاول أن يكون محايدًا وصديقًا للجميع. بيضة القبان بين حاتم وغزوان. بين بشيرة ودلاله. يصغي إليهم ويساعدهم في نكء الجروح السابقة. يتعاون معهم في تنظيفها وتجفيفها لتندمل بشكل صحيح. ينتظر أن تتساقط قشورهم ويبين اللب فيكون قد أدى مهتمه. تلك ستكون لحظة سعيدة.

وسندس؟ ما موقعها بينهم؟ كلهم في صوب وهي في صوب. يقتضي النظام بقاءها خارج الحلقة. فهي لا تشبه الآخرين ولا تحمل عللهم. جمّارة طازجة طالعة من عذق نخلة. لا حاجة لديها إلى طبيب مثله. إلا إذا كان مغرمًا ينوي التقرب وتقديم أوراق الاعتماد. كم ستكون المجموعة رتيبة من دون سندس!

أراد أن يجد وسيلة لسحبها إلى دائرتهم. تبقى قريبة فيلتقيها في أوقات الاستراحة والطعام. قالت أمها إنها خشيتْ أن تتركها وحيدة في البلد الغريب. جاءت بها رفيقة ووَنَسًا. ومنذ اليومين الأولين أدرك حلّال العقد أن البنت هي التي ترعى بشيرة وتخاف عليها. لعلها لاحظت نظرات الآخرين إلى والدتها. ارتباك حاتم الحاتميّ وهو يوارب عينيه. فيهما ما فيهما. لا يدري بلاسم لمَ أحسّ بأن بين الاثنين معرفة سابقة.

زلّ لسان الرجل الضخم، ذات ليلة، وأتى على ذكر حُسن الأم في صباها. حاول الدكتور أن يعرف مزيدًا لكن الحاتميّ سكت. لم

يشأ الدخول في التفاصيل. يشرب ويحاذر أن يسكر. ينجح غالبًا. أثار فضوله حين همس بلغة تراثية:

- في خابية بشيرة خانم سلافٌ وعسل.

لو كانوا في تلك البلاد لكان حضورها شعلة قرب بارود. لكنهم ضيوف الدولة المحايدة. عاش كلٌّ منهم لاجئًا في أوروبا خارج آبار الحرمان. صاحبوا البيضاء والسمراء. تمتعوا بالحلمات الورديّة والسوداء. بملمس الحرير الخام. لن يحوموا ذبابًا حول خابية بشيرة وعسل ابنتها. ولعل العكس هو ما رأيت. ثارت لديهم شهامتهم الفطرية وأعراف حماية بنات البلد. الست بشيرة أختهم وابنتها عِرضهم. سيحملونها على كفوف الراحة ويضعون سندس في بؤبؤ العين. يستعيد بلاسم بنفسج عينيها فتغمره غيمة النشوة.

احتشم يا دكتور! ألجم نفسك الأمارة بالتهيؤات. كان قد حسب كل حسابات هذه الرحلة. قلّب تفاصيل الإقامة على جميع أوجهها. فاته هذا الفخ. آخر ما كان يتصوره أن ينزلق إلى علاقة عاطفية. لو كانوا في فينيسيا السواقي، في باريس النور، في فيرونا مدينة روميو وجولييت... إلا بازل. مدينة يقع اسمها على الأذن كالصفعة.

عجيبة دول اللجوء. تحنو على المحتمين بها أكثر من الأوطان. تجتهد دوائر الصحة في تطبيب أجسادهم وترميم النفوس. أرواح معطوبة تحتاج مراعاة خاصة وتفهمًا. جيء بهم إلى سويسرا وجيء

به ليكون طبيبهم النفسيّ المقرّب والأليف. صديق يحاورهم. عليه أن يكشط الصدأ الذي استقر على عقول مُتحجرة. زنجار سميك من حديد تلك البلاد. طبقات فوق طبقات. إدمان من نوع عجيب مُزمن. مكتبة سُر مَن قرأ

فتّش عنهم باحثون متخصصون من عدة دوائر صحيّة. بحثوا أمرهم في إحدى لجان البرلمان الأوروبي. اختاروهم بعد تدقيق وأرسلوهم إلى هنا. سيجربّون فيهم عقارًا جديدًا يداوي نوعًا مختلفًا من الهوس. لم يكن تحشيشًا ولا ابتلاء بخمور ثقيلة. إن مرضاه، وهو وصف لا يميل إليه، مصابون بنوع من التعلق المعنويّ الشديد. عقولهم نعال عتيقة. كتل صمّاء لا تقبل اختلافًا. أنت تجادلني إذًا أنت تخالفني. أنت تخالفني إذًا أنت خصمي.

قيل للدكتور بلاسم إنهم مدمنو عقائد. استقبل التشخيص بضحكة فاترة. هم بالأحرى يقيمون في بناء تهاوت أعمدته لكنه ما زال قائمًا. هيكله أضلاعهم. انقرض الجدار وهم غافلون ينكرون سقوطه.

- إرهابيون؟

- بل أسرى أوهام.

- وما الضرر؟

- الوهم يدفعهم إلى رفض الواقع.

- هذه مشكلتهم الخاصة.

ـ بل مشكلتهم مع الآخرين.

تخشى دول اللجوء هذا النوع من الوافدين. تراقبهم وتُدرج أسماءهم في قوائم سريّة. جريرتهم أنهم يحمِلون للماضي طاعة عمياء. مصفّحون ضد الاندماج. سلوك خطير يمكن أن يؤدي إلى التدمير. إلى الخراب. تجرّع الغربيون أنواعًا من المفخخات فصاروا يخافون بالونات الأطفال. يفكّر بلاسم في المهمة التي انتدبوه لها فيراهم يبالغون. يشعر أنهم أخطؤوا الهدف. لم يسمع عن عراقيّ نفّذ عملية إرهابية في أوروبا. لا قنابل بيتية الصنع. لا طعنة بسكين. لا دهسًا بسيارة. مظلومون هم والله. سلسبيل له سمعة خلّ.

خصصوا له شقّة في المبنى الذي يجمعهم. لمح في الجوار متحفًا للفنون الإلكترونية. نوع من الإبداع لا يعرف عنه كثيرًا. سيزوره حتمًا. وهناك، عند الزاوية، مقهى ومطعم لوجبات بسيطة. فطائر وعصائر ومثلجات. يقدم أيضًا مشروبات روحية. سبيريتس. اسم على مُسمّى. هي الروح حين تخفّ وتسمو بالجسد. وهو سليل أرض الرافدين. أجداده خمّروا الشعير قبل الميلاد بعشرة قرون.

يسهر مع الحاتميّ فيضيف إليه معلومة جديدة:

- أتعرف يا دكتورنا أن للبيرة آلهة سومرية تدعى نينكاسي؟

- اقرع إذًا كأسك بكاسي!

وحاتم يشرب مثل زير. لكن شركات الأدوية لم تأتِ بهم ليسكروا في بازل. اعترضت دلاله الآشورية على ما كانت تسمعه

عن سهراتهم. قال لها بلاسم إن السيد المسيح سمح بالخمرة لأن قليلًا منها يفرح القلب. ثارت في وجهه:

- من أين جئت بهذا الكلام الماسخ؟

- من الإنجيل.

- الإنجيل يقول: لا تسكروا بالخمر التي فيها الخلاعة.

يقطع الساحة الحجرية ويصل إلى الطريق الأجرد. يرى سكة الترام رقم ١١ النازل إلى المدينة، يسارًا، أو الصاعد إلى الضواحي يمينًا. مناطق لا بد وأن يتعرف عليها. يتأمل المبنى والساحات. أرصفة رماديّة باردة بلا روح. حاول مهندس الفضاءات المكشوفة أن يبثّ شيئًا من الخضرة في الشرفات الفسيحة. جاء بصناديق خشبية متدرجة عموديًّا وزرع فيها أعشابًا وأزاهير. جفّ النبات ولم يورق. سعيكم مشكور. مات الورد لأنه لم يُخلق لينمو في حدائق الأسمنت.

تصوّر حلّال العقد، في بداية إقامته، أن أيامه في بازل ستكون مُعلبة مثل تلك الصناديق الرصاصية. رأى في البعيد، الأبراج العالية لمصانع العقاقير وفاحت في مخيلته روائح كيمياوية. نفوره وهو صغير من كبسولات فيتامين «بي تو». من شربة زيت الخروع. يغلق أنفه حين تفتح أمه فمه بالقوة لتدس فيه الملعقة. يختنق ويتشنج وتطفر دموعه. كان ولدًا عليلًا كبر، حسب قولها، بالشفاعات. لا يعرف من هن الشافعات الطيبات اللواتي وقفن فوق مهاده ليشفى.

سيخترع عنهن قصصًا يحكيها لسندس. لعل حكاياته تمهّد للألفة. تزيل التوجّس بينهما.

تشكلت الحلقة من امرأتين ورجلين وهو خامسهم. لاجئون قدامى ولاحقون. جمعهم لقاء أول للتعارف حسب برنامج مرسوم مُسبقًا. شرح لهم طريقة العمل. سيقدم كلٌّ منهم نفسه على غرار حلقات العلاج الجماعي من الإدمان:

- هل رأيتم ذلك في الأفلام؟

- نعم، يعترف كل واحد بأنه مدمن.

- بالضبط. يقول أنا فلان وأنا كحوليّ.

- هل نقلّد الأفلام ونرحب به؟

- يمكنكم أن تفعلوا. لا ضرورة للأسماء الحقيقية.

هيأت لهم شركات صناعة الدواء إقامة على طرف المدينة، سكنًا جامعيًّا غير بعيد عنها. هنا تتجمع كبرياتها. نوفارتس. ساندوز. هوفمان لاروش وأسماء أخرى يصعب حفظها. المبنى من طابقين. له صفات جوزة هند مستطيلة. قاتم خشن من الخارج، أبيض ناصع من الداخل. وهناك إلى يمين المدخل مكتبة وصالة للاجتماعات. في الطابق العلويّ إستوديوهات واسعة مريحة لكل منهم ومطبخ مشترك. مكان بعيد عن جلبة المدينة. مختبر بالغ الحداثة. معمار من مدن المستقبل. للأثاث وأدوات المائدة أشكال انسيابية.

أمضى بلاسم نهاره الأول يتأمل تصاميم المقاعد والملاعق وعلّاقات الثياب. حتى مغرفة الشوربة قطعة فنية. ومنشفة الحمّام لا تشبه ما يعرف من بشاكير. رقيقة فائقة الامتصاص. يمررها على شعره الخشن الكثيف فينشف بدون مجففة. كل ما في الشقّة مضبوط ومُرتّب. مرسوم بالمسطرة والفرجار ومحدّد بمثلث الزوايا. وكذلك المواعيد. إنها مقدسة. يكفر من يُخالفها. يهرعون إليها بدقّة ساعة سويسرية أو بدون ساعة. أعطوهم هواتف حديثة ترنّ في جيب كل منهم، تبلغه بالتزاماته. لا مهرب من الرنّات.

فضفضة

- اسمي حاتم وأنا مدمن قوميّة عربية.

- أهلًا حاتم.

- اسمي غزوان. خريج سجون ومن محبي آل البيت.

- أهلًا غزوان.

- أنا بشيرة حسّون. يسارية.

- أهلًا بشيرة.

- اسمي دلاله وأنا مُبشِّرة.

- أهلا دلاله.

تعرّف بلاسم إلى السيدة الجميلة بشيرة، وعلى ضابط الأمن السابق حاتم الحاتمي وعلى السيد غزوان البابليّ. على رأس البابليّ عمامة سوداء غير منظورة. يخفيها تحت طبع ساخر لا يليق بأصحاب العمائم. طرائف كانت ضرورية لتلطيف الأجواء. لم يخبرهم عن

نوع عمله واكتفى بالقول إنه خرّيج سجون. وكانت الست دلاله شمعون الأكثر تحفظًا وسط الجميع. قدّمت نفسها بأنها امرأة مؤمنة تبشِّر بمملكة يهوه. قالتها، فابتسمنا جميعًا.

مرّت المقابلة الأولى بدون حرارة وتكفّلت دعابات البابليّ بإزالة الحرج. أدار عينيه بين السيدتين وقال:

- نحن هنا بين الست بشيرة والست المُبشِّرة.

لم تبتسم دلاله بينما ألحّت عليه بشيرة:

- خريج سجون قدر محتوم في بلادنا وليس وظيفة.

- حسنًا يا أختي، أنا نشال سابق وعازف طبلة لاحق.

يراوغ ولا يعطي جوابًا. أثارت شخصيته فضول الدكتور بلاسم أكثر من الباقين. بدا له أنه اكتسب قامته القصيرة المُسطّحة من كثرة ما ديس بالأقدام. مجروح مُزمن يضمّد ماضيه بلفافات من النكات. كلهم كان يموّه ويرتدي قناعًا تنكريًّا. وتلك، حسب خبرة الطبيب، هي طبيعة الأشياء. بعد ذلك فعلت الكبسولات البرتقالية والخضراء فعلها وانطلقت الألسن المربوطة تفصح وتبوح.

لا يدري كيف ترتّبت المجموعة ولا من قام باختيار أفرادها. توقّع أنها مؤسسات تُعنى بالمهاجرين. قد يكون لها يد في جيوب كارتلات صناعة الدواء. اتصلوا به ولم يقولوا من دلّهم عليه ولا كيف حصلوا على رقمه. كان يشتغل في مركز لمكافحة الإدمان في

ضواحي مانشستر حين اقترحوا عليه الإشراف على دورة صيفية في بازل. لا بد أن أصله العراقي ولغته العربية وراء الاختيار. شرحوا له الفكرة فتصوّرهم يمزحون.

- تستخدمون اللاجئين فئران تجارب؟

- بل نساعدهم لبدء حياة سليمة.

- بالعقاقير؟

- بأدوية جديدة فعّالة وبجلسات الفضفضة.

لم يكن واجبه أن يستجوبهم مثل محقق شرطة بل أن يفرش لهم مائدة الكلام. آمن منذ صباه بأنه ولد ليكون طبيبًا نفسيًّا. عاملًا في مناجم أعماق البشر. تفوّق في الدراسة ودخل كلية الطب. لم يستنكف من حصص التشريح ولا نفر من روائح الفورمالين. كان مأخوذًا بشقّ الأجسام ورؤية ما في أحشائها. يفتح الجمجمة بالمثقاب أو بالمنشار. يستمع من الأستاذ إلى شرح محتوياتها. هي مستودع الأسرار. الصندوق الأسود للكائن البشريّ. فكّر في أن يكون جراح مخّ وأعصاب ثم انحرف المسار واستسلم لغواية الطب النفساني. يقترب من النوازع المستترة. يدرس كل ما يؤسس للميول ويوجّه الأفعال.

استاء أبوه من قراره. أسرة بسيطة الحال كلّ من فيها يعوِّل على الابن المتفوق. لكن جدّته فرحت باختياره حتى لو لم تفهمه. عجوز تعشق الراديو والتليفزيون. تتفرّج على الأفلام القديمة.

تحفظ الأغاني وتسلّي بها أيامها. تنبسط ملامحها حين يقول لها ويعيد القول إنه حكيم روحانيّ. تردّ عليه في كلّ مرّة:

- فدوة لعمرك... يعني مثل عبدالوهاب.

مضت السنوات وابتعد عن بلد أبيه وأمّه وجدّته. وصل بريطانيا وواصل تخصّصه. ارتاح لمانشستر واستقرّ فيها. وها هو يحضر في سويسرا مغامرة تبدو غير معقولة. لعلها أقصى ما يحلم به من كان في مثل ميدانه. يجالس أربعة أغرابًا، لا يعرفهم ولا يعرف أحدهم الآخر، يتكاشفون في صيف دائم المطر.

شرح لهم خطة العمل. البداية هي الاعتراف بالعلّة. الحاجة إلى المساعدة. ولا بأس من اتباع الأسلوب الشائع في مشافي العلاج النفسي. يحكي كل واحد وقائع حياته التي أوصلته إلى ما هو فيه. عليه أن يتكلم، لا غير، يتذكّر ويروي. يثرثر ويسمح للضوء بالتسلل إلى الزوايا المعتمة في الذاكرة. مع التقدم في المكاشفة سيضع اليد على عقدة كلّ منهم. وستكون هناك عقاقير موازية تشتغل على الدماغ وتساعد في الانسلاخ. التحرر. ليس عقل الإنسان سوى حبة جوز كبيرة مُقشّرة. أربعة جوزات تنفلق أمامه. وماذا عن جوزته الخاصة؟ عقله سيبقى باردًا محكومًا بحياد إيجابي.

تعبّ سماء بازل أقداح البيرة وتتبول عليهم بدون انقطاع. كان يساعدهم وهم يقومون بالتنقيب داخل ماضي كلّ منهم. تقشير الثمرة المهترئة. ولم يكن الوصول إلى النواة يسيرًا.

وهناك سندس، المخلوقة المختلفة. نبع الماء الصافي في بحيرة متعكّرة.

حفلة إعدام

تحضر بشيرة ويجيء معها الماضي المشؤوم دفعة واحدة. هناك من الصباحات ما يحلّ على المرء مثل بومة قاتمة. ينهض البشر ليغتسلوا ويستقبلوا نهارًا جديدًا يتمنّونه طيبًا ثم تنعكس الأمور. كانت أم حاتم توقظه، وهو صغير، بكلمات تشبه التعويذة:

- قم يا وليدي واشطف الشيطان عن وجهك.

- لخاطر الله، دعيه على وجهي عشر دقائق أخرى.

ماذا كان على الولد الصغير أن يشطف، في ذلك الصباح، وقد كبر واقترب من الثلاثين؟ كأن حاوية من صهاريج نزح المجاري هطلت على رأس حاتم الحاتميّ. كدسة لزجة من قاذورات تسيل من جبهته على عينيه. هكذا كانت حاله حين رنّ الهاتف الرابض قرب السرير. يعرف من يكون وراء رنين الفجر. استدعاء لواجب طارئ. وهو معتاد على الاستدعاءات، بارع في التملص واختلاق الأعذار. لكن الأمر، تلك المرّة، لم يكن يحتمل أي حجّة:

- تعالَ أيها الرفيق مع سلاحك إلى مقر الفرقة قبل الظهر.

- خير؟

- تعال وستعرف. لا تنسَ سلاحك.

لم يتفاجأ الحاتميّ بالطلب. كان أمضى ليلته مغمض الأجفان، يقظ التفكير، ينتظر الرنين. عرف بالأمر منذ المساء السابق. مرّ عليه زوج شقيقته وأبلغه بأن يستعد. كان يفوقه في التراتب الحزبيّ.

- القيادة تنوي إعدام الجماعة.

- أمر متوقّع.

- سيتم الإعدام بأيدي أقرب الرفاق. الأصحاب يصوّبون على الأصحاب.

- تقصد الخونة المتآمرين.

ما كان يأمن لأحد، ولا حتى لابن عمّه، زوج شقيقته. لا يخطئ في كلمة حتى بعد بطحية عرق. صار يتفادى جلسات الشراب منذ أن تقدم في التنظيم. الدرجة الرفيعة تفتح عليه الأعين. تُشنّف الآذان. تُضاعف الحاسدين. تصير غلطته بألف. وهو ضابط أمن شاطر يجيد انتقاء العبارة الطاردة للشبهة. كلماته محددة لا تحتمل التأويل. فحتى المساء السابق، كان الرفيق أبو يعرب يُدعى أبو يعرب. ومع شروق الشمس سيكون اسمه المتآمر فلان الفلاني. ولمزيد من الوطنية سيكون الوصف المناسب هو الخائن العميل الجاحد القذر.

لكن العميل القذر كان، هذه المرة، صديق عمره أبا محمد. أقيم حفل طهورهما في يوم واحد. جلسا متجاورين على منضدة واحدة في الابتدائية. لم ينفصلا في المدرسة الثانوية. انتقلا إلى العاصمة في القطار نفسه. سارا في المظاهرات الكتف بالكتف. بل إن أبا محمد هو الذي كسب حاتم للحزب. خدما العسكرية معًا وتسرّحا معًا بفارق شهرين. كان كل منهما شاهدًا على زواج الثاني. واليوم سيحمل رشاشته ويذهب ليقف في فصيل الإعدام ويطلق النار على رفيق عمره.

لم يكن متأكدًا من قدرته على إنجاز المهمة. خشيَ أن تخونه أعصابه في اللحظة الحرجة. أبلغ زوجته بأن الأمر كذا وكذا وهو قد لا يعود. لطمت وجهها وعلا صوتها. لم يرَها تلطم من قبل، بنت الذوات خريجة المدارس الأهلية. أراد إخراسها بنظرة صارمة فلم تسكت. وضع كفه على فمها:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- تريدين تسبينا يا مَرة؟

- أكو سبي أكثر من هذا يا رجال؟

لم يغسل وجهه ذلك الصباح ولم يطرد عنه شيطانًا. نظر إلى المرآة فرأى ملامح إبليس. حمل سلاحه وتوجه إلى الباب. الهاتف يرنّ بدون توقف. صوت ناعم باكٍ يطلب منه المرور على جاره سالم. هناك مشكلة في بيت الرفيق سالم. عليه أن يتصرف بسرعة. لا وقت لقلاقل جانبية. لا يدري كيف جاءه ذلك الخاطر فابتسم رغم حراجة اللحظة. كانت كنية سالم «الرفيق الحاشر». مصطلح من

إفرازات العسكرية. رفيق دائم التأزم مثل طلقة محشورة في ماسورة بندقية. في السبطانة.

سار إلى بيت الجار وسمع من باب الحديقة نحيبًا موجعًا. دخل ووجد الزوجة والبنات يولولن والرفيق سالم مُكوّمًا عند باب المطبخ. فزعهن أشدّ من الحزن.

– ماذا حدث؟

– بابا لا يتنفّس، بابا مات.

أسنان البنت الكبرى تصطك فتصله كلماتها متقطعة مثل جهاز لاسلكي أضاع الموجة. تقول إن أحدهم اتصل بأبيها وطلب منه الحضور مع سلاحه. سقطت السماعة من يد الأب وراح يكرر على زوجته ما سمع وهي لا تفهم سبب هلعه. أعاد الأمر الذي تبلّغ به عدة مرّات حتى احتبس صوته. انقبض وجهه وازرورق وجحظت عيناه. تهاوى في مكانه.

كاد قلب الحاتميّ يتوقف، أيضًا. سحب نفسًا عميقًا انتفخ به صدره العريض. كزّ على أسنانه لكيلا يعوي. تمنى لو يخرج عن طوره. لو يشتم. لو يستنزل اللعنات على المبادئ والتنظيم والبلد وكل السماوات. ثم لجمته حاسته السابعة فتمالك نفسه. تصلّبت قامته المديدة وخرجت من سور الصين كلمات صفيحية. قرقعة خانعة لا تشبه صوته:

– تشجعّي يا بنتي. بابا شهيد. عمره خلص.

- ماذا نفعل يا عمّي؟

- الحزب موجود. القائد أبو الجميع.

الحاسة السابعة، تلك التي تشتغل للنفاق. تتحرك بشكل آليّ. تلهمه صائب القول.

خرج مسرعًا ليلتحق بالواجب قبل الظهيرة. عاتبته حاسته. ما كان يصحّ أن يقول للبنت إن أباها شهيد. لا بد وأن الحزب سيعتبر الأب الميت متخاذلًا. وصف سهل يجري توزيعه على من يحاجج من الرفاق ويريد أن يفهم. أو من يتلكأ في التنفيذ. الوطن مُستهدف والأعداء كثر. لا مجال للتردد والتفكير. لا بد من تأجيل الهموم الخاصة. تأخير السكتات القلبية. نفّذ ثم ناقش. خاف على نفسه من ميتة مماثلة. سيقولون عنه إنه جبان قليل رجولة. ناقص ولاء. ليت تلك اللحظة تنتهي بأقل الأضرار.

قاد سيارته وذهنه متعطّل. خرج من زيّونة وقطع شارع الربيعي واتجه نحو ساحة الأندلس. دار حول الساحة مرتين. كأنه يتعمد أن لا يصل. يخطئ الدرب وتجتاحه شاحنة تهرس عظامه وتجنّبه كابوس ما هو مُقبل عليه. لكنه استمر في طريقه ووصل وتبادل التحيات. كانت شوارب الرفاق تنتفض غضبًا. لا مكان لأسف أو غمّ. الكلّ جاهز للاقتصاص. طقس وحشيّ من طقوس غسل العار.

وقف حاتم أمام صف الخونة المفترضين ولم يعرف بينهم أبا

محمد. صديقه ليس خائنًا وهو يعرف أنه بريء. نفِّذ ولا تناقش. الوجوه منتفخة والكدمات تمنع تمييز الملامح. كلّ العيون كانت عيني رفيق عمره. كلّ نظرات العتب المرّ نظراته. أشفق على نفسه أكثر من الواقفين ينتظرون الموت.

يمكن جدًّا أن أكون في مكانه ويكون هنا، في صف المسلحين، يوجّه نحوي بندقيته. بأي استنكار كنت سأواجهه؟ سيتحاشى عينيَّ ويطلق النار. يقتلني ويذهب ليتعشى مع زوجته. يشتري في طريقه كبابًا وأرغفة ساخنة. يراجع مع أطفاله دروسهم. يشرب الشاي ويستمر قطعة في ماكينة الشر. برغيًا. خردة. هيكلًا خربًا.

أدّى الواجب ونفّذ الأمر. أطلق النار من سلاحه الحزبيّ مثل رجل آليّ. تصلَّبت أصابعه على الزناد. أغمض عينيه لكيلا يرى الأجساد تنقصف. فتحهما وشاهد سواقي الدم. شمّ النجيع وهو يهتف بشعارات النصر مع الهاتفين. كأنهم عادوا فورًا من تحرير فلسطين.

لم ينصرف بعد التنفيذ. كان عليه أن يحضر اجتماعًا مطولًا للقيادة. أكلوا وشربوا وتحركت الأفواه بالخطابات. تطاير من بين الأسنان رذاذ كثير. سعداء مبتهجون. لا يتصنعون الانبساط. يتنفسون الصعداء لأن أسنان المفرمة لم تصل إليهم. لا أحد يضمن روحه في أوحال الشكّ والوشاية. عاد إلى بيته في ساعة متأخرة. دخل الحمّام وأفرغ ما في جوفه في المرحاض. لحق به أكبر أطفاله:

- بابا تعشّيت؟

- رحْ نام...

وجد زوجته متمددة على الكنبة في غرفة المعيشة. لم تكلّف نفسها عناء إلقاء نظرة عليه. امتنعتْ منذ ذلك اليوم عن أداء ما يُفترض أنه واجبها الشرعي. رفضت أن تعود إلى فراشهما. يغضب عليها ويلعنها حينًا ويعذرها أحيانًا. يحتقر نفسه أكثر من احتقارها إياه. فجوة كبيرة اتسعت بينهما وبيته لم يعد بيته. يتدخل أشقاؤها للمصالحة فتصدّهم:

- أموت ولا أعاشره.

لا تسمّيه القاتل أمام أولاده والعائلة. أو المجرم الجبان عديم الضمير. تقولها في وجهه أو في قلبها... بنت الناس.

مولود في دبابة

تطل مصانع الدواء على الراين. يتأملها ويستبعد أن تصبّ المباني الشاهقة نفاياتها في مياه النهر. يقنع نفسه بأن السويسريين لا يفعلونها. قوم متحضرون يحترمون البيئة والطبيعة والأدغال والهوام والغيوم. يمرون بالأشجار فيرفعون لها قبعاتهم. يدفعون فرنكين مقابل كل كيس أسود من أكياس القمامة. تقع عليهم غرامات باهظة إذا خلطوا بقايا الطعام مع القناني الفارغة. تعلّم الدكتور بلاسم كيف يحمل أكياس نفاياته إلى المفرزة. الزجاجات الخضراء في حاوية والبنيّة في حاوية والبيضاء الشفافة في ثالثة. في مطبخ الشقّة المخصصة له ثلاثة أوعية صغيرة للقمامة. طبعوا على كل منها تعليمات تفصيلية. أمضى في يومه الأول ساعة لمطالعتها بصبر وتأنٍّ مثل درس سيؤدي فيه امتحانًا.

تلقى قبل وصوله إلى بازل دفترًا للتعليمات. كل شيء موصوف فيه. مواقف الحافلات. أسعار التذاكر. نوع العملة المحلية. تقلبات الطقس. أرقام شرطة الطوارئ. مفاتيح النداءات الخارجية. مواقف

الدراجات. أعطوا لكل واحد دراجة هوائية للتنقلات القريبة. حسبوا حساب خطواته ووعكاته وعطساته. كره حلّال العقد كل ذلك الحرص. المبالغة في الحرص إدمان آخر. النظام نبيّ السويسريين. شعب بَطِر يخلو من الهموم فيقرر أن يجعل من الفضلات مشكلة. يُحاذر أن يُدمّر الجمال المحيط بأراضيه. غاباتهم ثمينة ومطرهم مؤدب. يتساقط نثيث ثلجهم متمهلًا وعلى استحياء. يتلاشى مثل حلم سعيد. لا أضرار أو أوحال ولا مخاضات تصل حتى الركب.

في السوبرماركت زاوية للنباتات المزروعة. اشترى أربع بصيلات مرصوصة في وعاء. وضعها على طاولة الكتابة في شقّته. شُقيقة أكثر منها شقّة. كانت مغمضة في اليومين الأولين ثم تفتّحت أزاهيرها. ملأ أريج النرجس صومعته الصغيرة. عادة اكتسبها من سنوات التنقّل. أن يؤثث كل مقام جديد بمفردات أليفة. بساط ريفي مشغول بألوان ساطعة. لوحة لسوق شعبيّ. نخلة صغيرة لو توفّرت. كاسيتات لناظم الغزالي ويوسف عمر. بطانية قديمة من إنتاج فتّاح باشا ترافقه ولا يتخلى عنها.

يغادر بلاسم شقته في التاسعة حاملًا مخلفات اليوم السابق. يمضي بها إلى الحاويات الجماعية. يغسل يديه في حوض جانبيّ صغير ويتوجه إلى صالة اللقاء. يصافح المجموعة ويتناوبون على ترموس القهوة وسلّة الكرواسون. يتبادلون أحاديث جانبية أو يستعيدون وقائع سهرة الأمس. وفي التاسعة والنصف يأخذ كلٌّ مكانه. ويكون عليه أن يفتتح الجلسة.

تهيأ لمواجهة جديدة. واحد مقابل أربعة. يستمع إليهم ويتأكد من الأقفال التي تغلق عقولهم. عليهم أن يزعزعوا، معًا، الأساسات. يحلحلوا مسامير العقائد التي صدئت في فجواتها. يحاول كل منهم، يومًا بعد يوم، أن يزيل الوشم العالق بجلده. مثل طلاب الأرياف حين ينتقلون إلى بغداد. تحكّ البنات بحجر الخفاف الأسود النقوش الزرقاء عن الحنك وظواهر الكفوف. هذه كانت حاله وحال الذين معه في الحلقة. هاجروا إلى مجتمعات متقدمة وفازوا بالدرّة. رخصة إقامة للمدى الطويل. منهم من نال الجنسية الأجنبية ومنهم من ينتظر. صار عليهم واجب الامتنان للبلد الذي آواهم. التأقلم مع القوم وتبنّي طرائق عيشهم. يحترمون القوانين ويتخلصون من العلل والترهات التي جيء بها في حقائب السفر.

رأسه يثرثر بدون توقف ولسانه يتمخض ويَلِد الحكايات. هذيان يشاركه فيه رفاق الجلسة. يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. عبارة أخرى من خزين قراءاته ومحفوظاته. بلاغة كاسدة يتمرّن على مغادرتها. التحدث بلغة خالية من التزويق. يحكي ويستمعون. يهزون الرؤوس بدون كثير حماسة. يتكلم بالصوت المسموع ويلعن في سرّه جلساءه المستمتعين باللعبة. ذلك هو شرطها. كن هادئًا. «بي كووول». لا انفعالات وتأوهات ولا دموع. لا بأس من سخريات خفيفات فحسب. ليسوا في حصة للتنمية البشرية بل في مصحّة سويسرية.

يتضايق حين يجدهم مرتاحين مستسلمين ويكون هو مأزومًا.

ذلك كان خياره. أن يكون مُعالجًا لمهاجرين مُختارين. مرضى بداء مبهم. لا تبدو عليهم مظاهر الإعياء. ليسوا خارجين على القوانين بل مخابيل أفكار معتقة. مطلوب منه أن يعالجهم من الإدمان العقائدي. وسواس أسود يخنس لهم من تحت الجلد. يتلقون التعليمات من مرشديهم ويعتنقونها. وحيٌ ينزل عليهم من أنبياء دجالين. لأنهم مراوغون يكذبون بأناقة. موهوبو كلام. هكذا كان يرى زعماء التيارات السياسية.

لا يختلف البشر، في مراكز الاختبار، عن فئران التجارب. كائنات محبوسة وراء أقفاص زجاجية. تتحرك وتدور حول نفسها. تبحث عن فتحة للهروب. تجري على امتداد الجدار الشفاف، تمسح أنوفها فيه. عيونها حمراء حائرة وأنينها مكتوم. ثم تتعب وتهدأ.

جاءوا إلى الجلسات الأولى قلقين متحفزين ولم يكن بأحسن حالًا. راقب وجوههم ورأى أسئلة في النظرات. لعلهم أدركوا مأزقه وبلاهة ابتسامته. وحتى عندما استرخوا بقيَ قلقًا.

- أفهم تمامًا أن تكون نظراتكم إليَّ شكوكيّة. أقصد من الشكّ.

- أكيد ليس من شكوكو...

أطلق غزوان البابليّ سهمه فضحكنا. بهلوان صاحب نكتة. أصوليّ لا يشبه أمثاله المتطرفين الذين نراهم على المنابر. وجهه سمح وضحكته حاضرة. أولئك كاريكاتيرات وهو حقيقيّ. يمزح فتسترخي الوجوه وينكسر قوس التوتّر. يواصلون التعارف

والتساؤل. مشاربهم مختلفة وأعمارهم متقاربة. كهول يحتفظون في أعينهم بتوثّب مراهقين. لم يعرف، في البداية، مشكلة أي منهم ولم يكن مستعجلًا ليعرف. لديهم من الوقت ما يكفي للحديث. لا بد من نسج بساط الألفة أولًا.

يحدث، في عيادة طبيب الأجسام، أن يخلع المريض ثيابه. أما عند طبيب النفوس فإنه يكشف روحه. وقد كان عليه أن ينزع، أيضًا، بعض الأحجبة عن نفسه لكي يحوز ثقتهم. هؤلاء كتب ومجلدات صفراء وهو، قياسًا بهم، صفحة غرّة بيضاء. عاصروا ثورات وانقلابات وحركات تحرر. وكان هو صبيًّا بسروال قصير ومخطته سائلة. ويوم أنهى المدرسة الثانوية كانوا قد فروا من البلد.

أغرته التجربة. قرر أن يخوضها حتى البلل. يختبرهم ويختبر نفسه. إن نجح يكتسب معارف جديدة وإن فشل فالذنب ليس ذنبه. يجد العلم الحديث لكل داء علاجًا، حتى التطرّف الفكريّ. والدواء موجود هنا في بازل. توصلت إليه مختبرات الأدوية. مصانع ضخمة وشركات لها ميزانيات دول نامية. لا بد أنهم جرّبوها على الفئران أولًا. هل للفئران أحزاب وعقائد؟ ينشر أصحاب التجربة أبحاثهم في مجلات الطب النفسي. يؤكدون على أنها طفرة علمية. صابون يغسل الأدمغة بأنصع من المساحيق وفي وقت قياسيّ.

قرأ تلك الدراسات وارتاب في نتائجها. للمرة الأولى يشكّ في العلم. لم يفهم، كمعالج نفسيّ، كيف يمكن للصقة خلف الكتف أن تخلّص كائنًا راشدًا من قناعات راسخة. القناعة ليست سيجارة

مضرّة بالصحة. كيف لكبسولة تدخل الفم أن تحلّ نزعات متأصلة في الضمائر. ما تعريف الضمير في معاجم الطب؟ يمكن للأمر أن ينفع مع النيكوتين أو الكوكايين. مع الخمرة والشراهة. كيمياء تتصدى لكيمياء. أما الأيديولوجيا فلا خبرة له بالتعاطي معها.

ليس داعية ولا من أهل النصيحة. لا مثاليات عنده يروّج لها بين العباد. ولا كثير إيمان بتعاليم نزلت من فوق. زعزع الانسلاخ عن الوطن كثيرًا من قيمه وأتى على الباقي فراق الأهل. أبوه يرابط أمام نشرات الأخبار وأمّه في المطبخ تجد دائمًا ما تعجنه وتقشّره أو تفرمه. وهناك جدته التي تغنّي ويضوع حسّها من باب غرفتها. صوتها تميمة تحوّطه وهو حفيدها الأثير.

كان عند الحلاق حين وقع انفجار قرب محطة الباصات. أمتار بينه وبين الدمار والدخان. فقد السمع لهنيهات ثم عربدت في الحي صافرات الشرطة وسيارات الإسعاف. احترق شقيقه وتسلموا جثمانه من الطب العدلي. فحمة متخشبة كانت قبل ساعات زهرة في عزّ تفتحها. أصيبت الأم بجلطة شلّتها. انقطع غناء الجدّة.

نجا بلاسم وانجرح قلبه. لازمه شعور قاسٍ بالذنب. كيف عاش وترك أخاه الصغير يتمزق؟ يهرب من أعين الأهل والجيران. يتخيلهم يتفحصونه بحثًا عن كسور في أطرافه. جروح وخدوش في جلده. يحوقلون ويحمدلون ويتصورونه سعيدًا بخلاصه. لا يفهمون أنه ثكل أخاه. شعر بلوعة الوالدة التي تفقد ولدها. لازمه إحساس الثكالى، ومعه رعب مقيم.

ما عاد يطيق المكوث في بلد الخوف والنفاق. الدينار أرخص من الورق الذي طُبع عليه. رأى أصدقاءه يفرّون تباعًا. يحتالون على قوانين المنع. يدفع الطبيب أو المهندس رشوة ويحصل على جواز سفر مزوّر. يكتبون في خانة المهنة أنه كاسب. يشتغل على باب الله. شاعت نكتة عن مسافر عجوز أصابته أزمة قلبية على معبر الطريبيل. صاح ضابط الحدود يطلب كاسبًا من بين الموجودين لكي يعالج المريض.

هرب آلاف الكَسَبة إلى الأردن. ومنها توزعوا في بلاد الله الواسعة. شباب مثل الورد أصحاب شهادات. يقفون بالساعات أمام مفوضية اللاجئين. يسافرون إلى دول تختارهم باليانصيب. منهم من يغيّر اسمه ويشتغل في أي شيء. أو يبدأ الدراسة مجددًا لكي يعادل شهادته. دفع بلاسم مبلغًا بالعملة الخضراء لكي يحصل على نسخة مُصدّقة من شهادته الجامعية. سحبته شقيقته الكبرى المتزوجة في أوروبا. هكذا كانوا يسمّون الهجرة. فلان من العائلة يسبقك ثم يسحبك. انضمّ إلى جيش اللاجئين. وبعد سنة ماتت أمّه المشلولة وتبعتها جدّته. لم يعد لديه الكثير الذي يربطه بتلك البلاد. اختار الغربة ولم يجبر عليها. لن يلتحق بقوافل الشهداء الذين ساروا إلى مصائرهم مرغمين.

كره السياسة والسياسيين. يلعنهم سرًّا فلما استقر في الخارج صار يلعنهم جهارًا. قاوم ببسالة لكيلا يدخل تنظيمًا أو حركة من التي استحوذت على الشارع. انهارت الشيوعية قبل أن يدركها ولم

تستهوِه الرومانسيات القومية. لم يكن متحمسًا مثل الحاتميّ والست بشيرة. لم يتديّن مثل مدام دلاله والبابليّ. لم ينتمِ إلى حزب ولم يمشِ في مظاهرة مثل الذين سبقوه. النضال والهتافات وتوقيع البيانات وحمل اللافتات أفعال تجري خارج دائرته. أورثه أبوه انتماءه إلى الوطن مثلما أورثه دينه وتقوّس أنفه. لم يصُمْ ولم يصلِّ.

الأمر الوحيد الذي داوم عليه هو الكتب. قرأ كثيرًا لأن لا شيء يفعله غير ذلك. يهرب من زعيق نشرات الأخبار ومن نظرة أمه المسجاة في حجرتها. يطبق باب غرفته ويقرأ. تفتح له الكتب أبوابًا وشبابيك من معارف وعجائب. يسبح في عرقه صيفًا ويكره رائحة جسده. يحلم ببحيرات يراها في التليفزيون. اشترى جهازًا خاصًّا به وضعه في غرفته. يتبادل مع صحبه أشرطة الأفلام الأجنبية ويدرس سلوك الشخصيات. نصب صحنًا لاقطًا فوق سطح البيت. يغطيه نهارًا ويكشفه ليلًا. الصحون ممنوعة إلا للمحظوظين. تصل مهرّبة وتبعات اقتنائها وخيمة.

حكى له زميله التونسي عن مصرع تشاوتشيسكو وزوجته وإعدامهما على الهواء. كان يزور شقيقه في فرنسا في إجازة رأس السنة. شاهد الوقائع في التلفزيون. انقلبت الجماهير على زعيمها المحبوب. كانوا يهتفون له ثم صار الهتاف صرخات احتجاج وتنديد. هرب مع زوجته في نفق سرّي وجيء بهما سجينين. حوكما في ربع ساعة. انتهيا مطروحين في باحة خارجية مثل كلبين.

– هس... سيسمعوننا!

- من هم؟

خاف أن يحكي عمّا سمع من زميله. قرأ العراقيون في صحفهم خبرًا عن إطاحة الديكتاتور الروماني. سمعوا ما بثته مونتي كارلو. لم يشاهدوا الصور ولا التسجيلات. الشاشات مدارس. تعلّم منها أكثر مما قدّمته إليه كتب الدراسة. أفرغ هياجه المكبوت أمامها. كأنه كان مُحصنًا من الهَوَس. مُلقحًا بمصلٍ مضادٍ للانجراف. يتسلى بمواويل جدّته وهذياناتها. حكت له عن خاله الذي تحمّس في مراهقته لعبد الناصر. تصوّره عملاقًا مثل هرم. راسخًا مثل إله. ثم مات الإله وتركه مخذولًا. يتذكرّ خاله ويحزن. لا يصدّق أن الهرم انهار وهو في الثانية والخمسين. في سن هؤلاء الذين يعالجهم اليوم.

أحبّ خاله وكان يستعير منه الكتب. أقسم أن لا يراهن مثله على فرد حتى لو كان قديسًا. تجادل كثيرًا مع أصدقائه. تعارك لأن وراء كل منهم يقف صنم. زعيم أوحد. جيفارا. عرفات. خميني. شعراوي. صدّام. طاش ما طاش. يصغي إلى جعجعتهم وهو على تلّ السلامة. يراقب أمّه وقد لوى الشلل فمها. تصرّ على تدخين سكائرها اللف. وحتى جدّته التي تفهمه ويفهمها. باعت تسجيلات المطربين ولازمت تسجيلات القرآن. منحته قلادتها الذهب وما ادخرته لجنازتها. قرأت على رأسه التعاويذ وباركته. شجّعته على السفر وكانت سعيدة بخلاصه من بلد الطاخ طاخ.

فيما بعد قال لسندس:

- نحن جيل ولد في دبابة.

بنك سويسرا

الوصيّة الأهم التي كان عليهم اتباعها هي التوقف عن متابعة أخبار ما يجري في بلدهم. ففي واقعهم الجديد، يفتش المهاجرون عن روح سابقة. يتأملون المباني والطرقات والصيدليات وسحنات البشر. يقارنون بين ما تركوا هناك وما يشبهه في البلاد الثانية. يبحثون عن نقاط ارتكاز لوجودهم الراهن. حجر أساس مفتقد قد يساعد في تثبيت أرواحهم. يروزون بضاعة المنفى. يتوهمون أن هناك شيئًا ناقصًا في مذاق الخضراوات الأجنبية. طازجة ولونها برّاق لكنها بلا طعم. والبرتقال بلا حلاوة. والتين إسفنج. حتى التمر المستورد من هناك «ليس مثل تمرنا».

تعلّم حاتم الحاتمي أن اسم الصيدلية بالألماني آبوتيكه. والخبز بروت. والبيرة بيير. الحلاق فريزور. كان هاتفه قد تعطل وخرج في العصرية يبحث عن مكان لتصليحه. تناول صاحب الدكان الجهاز الذي انغلق فجأة ولم يعُد يضيء. عالجه ببضع لمسات فعاد إلى العمل. فرح لأن أرقام هاتفه هي ذاكرته الثانية. أراد أن يدفع

إليه فامتنع العامل وهو يبتسم. قال إنه لم يفعل شيئًا. تعجبه الأمانة ولعلّه يفتقد الغشاشين.

قرر أن لا يستعجل في العودة. سيذهب إلى ذلك المقهى القريب في بازل القديمة. ارتاحت إليه نفسه واحتاج عدة محاولات لكي يحفظ اسمه: أونترنيهمن. فضاء فسيح وسقف زجاجي عالٍ وضجيج محبب. يتبادل الزبائن أحاديثهم بنبرات رائقة. موسيقى خفيفة وأصوات لا تثقب طبلة الأذن. هناك روح سابقة تحوم في الأرجاء. مكان يشبه المقهى البرازيلي في بغداد.

حفظ الطريق. يترك الترام ويسير في وسط البلد. ينعطف يسارًا في شارع غرونفالغاسه. هكذا قرأ الاسم. جادّات وطرقات بتسميات معقَّدة مثل أدويتهم. يدخل المقهى العريق ويتجاوز بوفيه الوجبات الجاهزة. يختار طاولة لشخصين، عند الطبقة المرتفعة قليلًا والمطلة على الفسحة الوسطية المستديرة. لعلها كانت حلبة للرقص في زمن ماضٍ. أو أنها ما زالت تستقبل الراقصين في سهرات الأعياد. يطلب قهوة مزدوِجة وكعكة بالجزر. ألذ من بقلاوة نعّوش. دلّته عليها كريستينا مديرة السكن. نصحته أيضًا بفطيرة الجوز والقرنفل.

هبط من الترام، تلك العصرية، وفاجأه المطر. رذاذ مؤدب غير مؤذٍ. جلس على مصطبة المحطة محتميًا بسقفها. فرصة لتأمل المباني العتيقة ذات الفخامة الأبدية. معمار يحافظ على الأبهة. يصون الأحجار السابقة ولا يتلاعب بها. بدت له بازل غانية متقاعدة

خالطت ملوكًا هجروها إلى مدن أحدث. غافلتهم واستبقت الثمين من هداياهم. كان يقرأ الواجهات ويتهجى أسماء الشركات حين انتبه إلى عمارة لا تختلف عمَّا يجاورها من مبانٍ. تطلّ على فسحة عريضة تتوسط الجادة الرئيسة. وقف وتقدّم خطوات ليتأكد من اللافتة المرتفعة. لم يأبه برذاذ أول الصيف. قرأ الاسم وشعر بثقل في قلبه. اتحاد المصارف السويسرية. عاد ليرمي جسده على المصطبة الخشبية. كان هناك في المبنى نفسه مطعم لماكدونالد ومتجر لأحذية باتا. من باتا ارتدى أول حذاء حقيقي يوم دخل المدرسة. سمّوها بعد التأميم الشركة العامة للجلود. ولم يكن أحد يعرف ماكدونالد في بغداد.

اهتزت تحته مصطبة المحطة أو كان جسده يختضّ. حصان مبهوت أمام المبنى الشاهق. تعاركت في رأسه الأفكار. يا أولاد الأفاعي. هنا، إذًا، تحتفظون بحسابات الرؤساء الفاسدين. تحرسونها تحت أرقام سرية وتتسترون عليها. تحلبونها وتنالون حصتكم. عائدات النفط. تستثمرون عطايا المساعدات الدولية. أموال صناديق التقاعد. مكافآت العمالة للمخابرات الغربية. ملايين الصفقات الوهمية. العمولات المشبوهة. أرباح تجار الآثار. حصص بيع الوطن بالتقسيط. مرتبات الشهداء المنهوبة. لقمة خبز الفقراء. آآآخ يا أولاد الكلب!

تجاهل الوقت الذي يمرّ وابتلّ شارباه. رذاذ ودمع ونقمة. كان راضيًا مرتاحًا بعد تصليح هاتفه ولم يتصور أن يخرج ليجد العفريت

في انتظاره. اتحاد البنوك السويسرية. يعني الخزنة الجامعة لثروات المارقين. هكذا قرأها في ذهنه. مرّ منذ حلوله في المدينة بمصارف كثيرة متعددة التسميات ولم يتوقف عندها. كان عقله الذي يقارن دائمًا بين هنا وهناك قد فاته الربط قبل هذه المرة. استوقفته الإضاءة الملونة للأحرف الثلاثة الكبيرة التي تختصر الاسم. إلى يسارها شعار يجمع ثلاثة مفاتيح فضية متداخلة مثل باقة ورد. مفاتيح الحرامية يا أولاد...!

«يموت الديك وعينه على المزبلة». تقولها له أمه يأسًا من عناده. تذهب إلى البزاز في سوق مدينتها الجنوبية وتشتري القماش البازة المقلّم. تخيط لأبنائها الستة دشاديش العيد. يلبسونها في الصباح مسرورين إلا الولد الجثيث العنيد. يخلعها ويعود إلى دشداشة صيفية اهترأ زيقها. سيموت الحاتميّ وعينه على المزبلة. يغضب من كلامها ويضرب أشقاءه لو كرروا ذلك المثل الشعبي وسخروا منه. لم يكن ديكًا وبلده ليس مزبلة. يعيش في الفردوس وتحرق قلبه نار جهنم. وحتى بازل، العروس المغسولة النظيفة، تختزن تحت جلدها دمامل خفية. ينام في خزائنها بعض من عَرَق العالم الثالث.

ما زالت مفردات سور الصين مستقاة من دفتر النضال. عَرَق شعوب العالم الثالث. تقوم ثورات وانقلابات في تلك البقاع المنكوبة بحكامها. تُستنفر فرق للتفتيش عن أرصدتهم في الخارج. سويسرا وموناكو وجزر البهاماس. تتشكل لجان وتذهب وفود وتعود

وفود. لا طائل سوى خفّي حنين. أخفاف حنين وابن حنين. تعود حليمة النظام الجديد إلى العادة القديمة. جيوب تتضخم وشعوب تأكل الهواء.

هرتزل كان هنا

لم يكن اتحاد البنوك السويسرية أول مبنى قبض قلبي وحوّل نهاري عتمة. نقلني من الاستكانة إلى السخط. كان غزوان البابليّ قد دار في شوارع بازل يبحث عن مسجد لطائفته. وصفوا له الموقع في حي هامشيّ ورقم الباص الذي يقوده إلى هناك. عثر عليه ووجد المكان أصغر من قنّ دجاج. مرآب تحت الأرض صار بقدرة قادر مُصلى. قال لي إنه كان أسعد ما يكون وهو محشور مع المصلين. يقفون ملتصقين خاشعين. أدى الفريضة وخرج راضيًا يحمد ربّه. أعجبه الحي وقرر أن لا يعود إلى دار السكن سريعًا. أراد اكتشاف خبايا المكان. ترك نفسه يسير بدون هدف.

أتخيّله وهو يتدعبل في الأزقة القديمة. جذعه ممتلئ وساقاه قصيرتان. سترته الطويلة تغطي مؤخرته المكتنزة. تفرّج على مطاعم كباب وفراريج وشاورما تحمل على وجهاتها علامة «حلال». سلّم على جزارين يبيعون المواشي المذبوحة وفق الشريعة. اشترى طاقية وسبحة وأكل بطيخًا مقشرًا. تعب من السير وصعد إلى أول باص

مرّ به. خاف أن يضيع ونزل بعد خمس محطات. هناك رأى ما لم يخطر له على بال.

عاد متحمسًا تتزاحم الكلمات على شفتيه. أخبرني بتفاصيل جولته. بحذافيرها. يتعمد الإطالة لكي يثير فضولي قبل أن ينزل عليَّ بالخبر المهم ومروره بمبنى عتيق كان مقرًّا لاجتماع تاريخي.

- أي اجتماع؟

- المؤتمر الصهيوني الأول.

- هرتزل وجماعته؟

- إي والله... كما أقول لك.

- كيف عرفت؟

- مكتوب على الحائط.

- بأي لغة؟

- لا أدري. لكنني لقفتها.

- خذني إلى هناك...

- كم تدفع؟

أتحمّس للذهاب ويأخذني إلى هناك في اليوم التالي. لا أدري كيف فاتتني هذه المعلومة. كنت قد راجعت تاريخ المدينة وقرأت ما هو متوفّر عن جغرافيتها ونفوسها. عرفت عدد متاحفها. رقم

يوازي كل ما هو موجود في بلاد العرب. منها هذا المبنى الذي كان قاعة شهيرة للموسيقى وما زال.

ذهبنا بالترام ثم أخذنا الحافلة وضِعنا في طرقات متداخلة حتى اهتدينا إليه. اسمه في الخارطة كازينو بازل. يقع في بداية شارع كونسرتغاسه. هكذا نقلتُ اسمه. وقفنا أمام عمارة كأنها صالة سينما قديمة من سينمات بغداد والبصرة. واجهة عالية تشي بأن وراءها مدرجات لجلوس المستمعين.

هنا، قبل مئة عام، انطبخت الطبخة المسمومة.

قرأت اللافتة ولم أجد تفاصيل أخرى. شعرت بأن ذاكرتي مخرومة ومعلوماتي عن الموضوع شحيحة. وفلسطين قضيتنا الأولى. شعارات وخطابات ويأس. حفظت اسم هرتزل ولا أعرف غير أنه صاحب فكرة تجميع يهود العالم في وطن يكون لهم. تمنيت لو أأخذ صورة للمكان لكنني لا أحمل كاميرا. دُرت في الشارع ذهابًا وإيابًا إلى أن سحبني غزوان لنعود.

وصلنا المسكن وذهبت مباشرة إلى المكتبة الموجودة في الطابق الأرضي. أردت البحث عن تفاصيل. كل الكتب بالألمانية لكنَّ هناك رفًّا للإنسكلوبيديا بريتانيكا. ليس لي سوى الاستنجاد بالمبشِّرة الآشورية التي تتحدث الإنجليزية مثل البلابل. تعالي يا ست دلاله واشرحي لي ما هو مكتوب عن ذلك الرجل.

لم تتأخر الست دلاله. فتحت الجزء المطلوب من الموسوعة

وبدأت تقرأ وتترجم. ولد ثيودور هرتزل في بودابست حين كانت ضمن الإمبراطورية النمساوية. اشتغل كاتبًا ومحاميًا وسياسيًّا. ومات بعد أربع سنوات من بداية القرن العشرين، وكان دون الخمسين من العمر. سعى إلى تجميع اليهود في وطن خاص بهم. طلب المال من أثرياء الطائفة لكي يحقق مشروعه وفي البداية لم يتحمسوا له. دعا إلى اجتماع لجمع التبرعات. لبى وجهاؤهم الدعوة والتقوا في بازل، صيف ١٨٩٧. اقترح عليهم الرجل ذو اللحية المربعة أكثر من مكان. أوغندا في إفريقيا. الأرجنتين في أميركا الجنوبية. وفلسطين في آسيا. سخر منه بعضهم لأن برنامجه كان خياليًّا. لكن وفي ظرف ثلاثة أيام، أسسوا منظمة صهيونية ووضعوا العين على فلسطين. «الأرض البهيّة» كما جاء في التوراة. من النيل إلى الفرات. قلب العالم العربي. شمّر يهود الشتات الأذرع يجمعون الأموال وينظمون الهجرات ويشترون الأراضي.

ما حدث بعد ذلك أعرفه ويعرفه كل أبناء جيلي. جاء بلفور، رئيس وزراء بريطانيا العظمى، ومنح اليهود وعدًا بمنحهم أرض الميعاد. مرت خمسون عامًا على مؤتمر بازل وقامت دولتهم. رفضناها وحاربناها. سميناها كيانًا مصطنعًا. إسرائيل اللقيطة. شوكة في خاصرة أمتنا العربية.

أترك الست دلاله تمسح عويناتها من بخار أنفاسها وأتذكر بيت الرصافي الذي حفظناه في المدرسة: «لو كنتَ من أهلِ المكارمِ لم تكنْ... مِنْ جيبِ غيركَ مُحسنًا يا بلفورُ».

- ماذا تقول يا سيد حاتم؟

- أقول ذاكرتي تؤلمني وأتمنى قلعها.

نشتري بيكاسو

- حدثني عن نفسك؟

تسأله سندس وهما في الترام ذاهبان لرؤية معرض بيكاسو في مؤسسة «بييلير». اقتنى بلاسم تذكرتين بعد أن أخذ إذنًا من والدتها. لا بد أن الست بشيرة لاحظت الفراشات الملونة الطائرة بينه وبين ابنتها. تقلق العربيات المهاجرات على بناتهن. تخشى كل أمّ أن تفلت ابنتها وتذهب مع أجنبي. الأمل المنشود أن تتعرّف إلى شاب من جلدتها، جاهز للزواج. وهو لو كان طبيبًا فذلك عزّ الطلب. له عمل مستقر ولا يعتمد على المساعدة الاجتماعية. سيأتي أحفاد سعداء هم انتقام المستقبل من الماضي.

رأته يحوم حول سندس ولم تعترض. وكان بيكاسو هو الحجّة هذه المرة. معرض كبير يجمع لوحات مرحلتيه الزرقاء والوردية. بعد بيكاسو ستكون هناك حجج كثيرة جاهزة.

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

- من أنتَ؟

- لاجئ طيب.

- مثل ملايين اللاجئين؟

- ليسوا كلهم طيبين.

- لماذا سافرت؟

- لأن آباءنا حاولوا أن يبنوا وطنًا أفضل وفشلوا.

- أتقصير منهم أم سوء حظ؟

- هذا وذاك. تحزبوا واختلفوا وضاعت البوصلة.

- هناك شيء لا أفهمه.

- شيء واحد فحسب؟

- كيف لا يتصالحون بعد كل هذا الخراب.

في الباص النظيف رقم ٦ الذاهب إلى المعرض، فاجأته سندس بحكاية مسليّة لا يدري كيف اخترعتها. ربطت علاقة خاصة بين بازل وبيكاسو. كان بعض أثرياء المدينة قد تعرفوا على أعماله في فترة مبكرة. قبل مئة عام مثلًا. اقتنوا لوحات كانت يومها بفليسات. مِن هؤلاء واحد يدعى ستاشلن. أعار لوحاته، بعد الحرب، إلى متحف الفن الحديث في مدينته. زاد سعرها وبلغ الملايين. أوصى ورثته أن لا يبيعوا شيئًا منها إلا عند ضائقة شديدة. عاشوا رغدًا ثلاثين سنة ثم جاءت الضائقة. تحطمت إحدى طائرات «جلوبال

إير» السويسرية التي يملكها ابن ستاشلن وأفلست الشركة. كان على الابن أن يدفع تعويضات بثمانية ملايين فرنك. لم يكن أمامه سوى أن يبيع.

انتفض الأهالي ضد بيع بيكاسو. تلك اللوحات تخصُّهم. تعود إليهم. معروضة في متحفهم. تربوا وربّوا أبناءهم عليها. تباهوا بها ويريدون لأحفادهم أن يروها رؤية العين. يتدخّل المجلس البلدي ويعلن استعداده لتقديم ستة ملايين فرنك مقابل اللوحات. وكان هناك من اعترض على دفع ذلك المبلغ ثمن «بضاعة جامدة». أليست المدارس والمستشفيات وصيانة الطرقات أجدر بالفلوس؟ قررت البلدية استطلاع رأي البازليين. نشتري بيكاسو أم نبيعه؟ أول استفتاء من نوعه في أوروبا حول قضية فنية. اثنان وثلاثون ألفًا قالوا نعم نشتري. وسبعة وعشرون ألفًا قالوا نبيع. مع هذا كان لا بد من تدبير المليونين الباقيين.

– اختصري يا سندس. سنصل.

– الصبر جميل يا دكتور.

نظّم طلبة المدينة مهرجانًا كبيرًا لجمع التبرعات. كان الشعار: «كل ما نحتاجه هو بيكاسو». ويشاء ربّك أن تصل الأخبار إلى الرسام. عبقريّ عجوز بخيل في السادسة والثمانين يقيم في جنوب فرنسا. شرب كأس نبيذه وقرر في لحظة أريحية أن يهديَ متحف بازل واحدة من أشهر لوحاته. وتحمّس صاحب شركة للأدوية وتبرّع للمتحف بلوحة تكعيبية ورثها عن أبيه.

تفرك سندس كفيها وعيناها تبذلان البنفسج:

- هكذا حافظت بازل على بيكاسو يا دكتور.

- اتفقنا أن اسمي حلَّال العُقد.

نزلا في محطة «بارفوسربلاتز» وسارا وراء السائرين. اجتازا ممرًّا مزروعًا بشجيرات الورد ووقفا أمام موظفة تدقيق التذاكر. كانت هناك عارضات جانبية في المدخل لتعليق المعاطف ورفوف لترك الحقائب والمظلات. امتنعت سندس عن تعليق معطفها في مكان لا يحرسه أحد. وتردد بلاسم في ترك حقيبته. هما من شعب يؤمن بأن المال السايب يعلّم السرقة. هناك من يستولي على نعال المصلين عند أبواب المساجد.

لم يصدقا ما كان متروكًا على الرفوف. عشرات السترات الجلدية والحقائب والمظلات الفاخرة. تبادلا غمزة وقررا أن يجرّبا. راهنا على أن من يحب بيكاسو لا يمكن أن يكون لصًّا. تخففا من أعبائهما ومضيا مسرورين يتجولان في القاعات الفسيحة. طفلان في ساحة عيد. كان بلاسم مبهورًا بما حوله. لوحات ومنحوتات عرفها من الصور ويراها أمامه رؤية العين. يحمي كتف سندس كيلا تضيع منه بين الزوار. رجال ونساء بالعشرات يلتزمون مسارات محددة ويتقدمون على مهل. يتوقف بعضهم ليلتقط صورة أو يستريح على أريكة أنيقة، يتأمل لوحة معينة حتى الارتواء. لا تشبع العين من ألاعيب الرسام الإسباني.

جلسا في الكافتيريا روحين خفيفتين. الفن الجميل يؤالف بين المخلوقات. يشربان القهوة ويتبادلان أحاديث عادية. ينتظر بلاسم أن يقول لسندس ما يود أن يقول. لماذا يصارحها وكلامه مقروء في عينيه؟ لحظات ساحرة يمددها ليطيل لذّتها. مال على أذنها ليهمس بما يعبّر عن شغفه لكن ارتباكها أوقفه. خفر فطريّ. وجنات تتورّد وأهداب ترفرف. لن يستغلّ براءة البنيّة.

جرّب أن يقول شيئًا يطرد التوتّر العابر:

- مصانع بازل تجرّب لقاحًا ضد التعصّب.

- أول رجل أراه يحلم.

- احلمي معي. تخيّلي مرهمًا ينشر التفاهم في العالم.

- فيلم من أفلام الخيال العلمي.

- يجرّبون العقار مع والدتك والآخرين. لهذا أنا هنا.

- هل صدّقت أنك ستمسح عقولهم؟

- عندنا الصيف كله.

لم يكن مثاليًّا كما وصفته سندس. ولا أنانيًّا منفصلًا عن هموم بلده وناسه. حكى لها عن عناده كيلا يسلّم عقله لفكر يخالف فطرته. أخبرها عن مطالعاته لابن رشد. إعجابه بمحاولته رأب الصدع بين الفلسفة والدين. مقدمة ابن خلدون وكتابات توما الأكويني. أفكار إسبينوزا عن ارتباط الجسد بالعقل والائتمار بأوامره. لم يكن بلاسم،

في الحصيلة، جاهلًا لكنه فاته أن كلامه كبير على هذه الصغيرة. قال لها إنه تمنى أن يكون فيلسوفًا ولم يفلح. الفيلسوف يحلّ ألغاز الكون وهو من جانبه يفكك عُقد النفوس.

- هل تعرف لماذا انفصلت أمي عن أبي؟

- عفوًا؟

- لأنه كان يدحرج لها أسماء أجنبية صعبة.

في التوقيف

عرفها حالمًا رآها. لو غابت عنه مئة عام لاهتدى إليها.

- أنا بشيرة.

- أهلًا تشرفنا، وأنا حاتم.

كان يحفظ كل حيثياتها. بشيرة حسون صاج آل محمود. لا يمكن أن ينساها، جارته المتحمسة التي كان مكلفًا بمراقبتها. تابعها من بعيد وحفظ مشيتها. تتنطط مرفوعة الرأس بخطوات قصيرة ولا تشعر به. تسير في طريقها لا تلتفت إلى أحد. راقصة باليه في حيّ نظيف كان لموظفي السكك الحديد ثم جار عليه الزمان. لطالما حاول الاقتراب منها لمجرد أن يستنشق أنفاسها. يستعيدها في مناماته ويسكر بعطرها. زيت الورد. زهر البرتقال. صابون أبو الهيل. يخشى أن تنتبه فيباعد ما بين مكانه ومكانها. قامته تلفت النظر وهو مضطر إلى التمويه. يغيّر أزياءه. عباءة عرب، سترة إفرنجية، بزّة عامل كهرباء.

ليس من مهماته مراقبة الأهداف. هو الذي اختار المهمة. أصرّ عليها وارتضاها. وكانت بشيرة هدفًا يغري بالتتبع. تسبغ على عمله لذّة المغامرة. لم يشعر وهو يتحرى المعلومات عنها بأنه يؤدي واجبًا خسيسًا. لا خسّة في أن يتبع قلبه. يحمي بنات الجيران. يحبّها منذ سنوات ولا تشعر به. تعيش لِصق سور الصين ولا تراه.

سكنت بشيرة مع والدتها في بيت بسيط مستأجر. سياجهم واطئ ونخلتهم تطرح حراشف وتمرًا ناشفًا. لا أحد يعرف من أين جاءتا. أفاد مختار الحي بأن الأب كان قائدًا نقابيًّا في شركة نفط كركوك، مات تحت إحدى الحفّارات. نشأتها تختلف عن نشأته. أسرته من عشائر الجنوب. الأب فلاح والابن واحد من آلاف تركوا الريف وانتقلوا إلى بغداد. درست شقيقات الحاتمي مع بشيرة في مدرسة واحدة. عرف منهن أنها كانت متفوقة. أرادت دخول كلية الهندسة ثم اكتوت بكبريت السياسة. نشأت على مبدأ أبيها. أبيّة عنيدة لا يعجبها العجب. تورطت في نشاط محظور وأحبّت أحد رفاقها. كان حزبهم قد تشتت وانتهت قياداته خارج البلاد. ثم جاء من يحاول بث الروح في السمكة المحتضرة.

يعرف حاتم أنها لم تكن المرأة الوحيدة في حياة رفيقها محترف الكلام. تغيرت الأوضاع والتحالفات. عاش متخفيًا ثم غاب ولم يترك أثرًا. وبشيرة الغارقة في عشق طفوليّ قاومت ولم تهرب. تدبّرت أمر نفسها وانتقلت للعيش في دار خالة لها في بغداد الجديدة. اعترضتها عناصر الأمن في أول أيام البكالوريا. لم يسمحوا لها

بالدخول إلى المدرسة. سحبها أحدهم بشعرها إلى سيارة بلا أرقام. حُرمت من أداء الامتحان وتبدد حلمها.

رآها في أسوأ منظر يمكن أن يتخيلها فيه. جالسة على الأرض في غرفة التوقيف القذرة. عيناها مربوطتان وشعرها منثور. تسند ظهرها إلى الجدار وتمد رقبتها إلى أمام. كأنها تنتظر قبلة وليست مهزومة. نغزه قلبه عندما لاحظ دمًا جافًّا عند أنفها وكدمة زرقاء في زاوية فكها. فوجئ باعتقالها ووصل متأخرًا بعد حفلة الضرب. أدركها قبل أن تتحول إلى وليمة ليلية للضباع. محبوبته الجميلة متلبّسة بالعمل مع جهة معارضة. ليس لها أب يبحث عنها ولا أقارب متنفذون. صار أمرها بين يديه. لا يدري ما الذي يحرّكه لحمايتها. أهي الجيرة في شارع البنزينخانة أم الحب المكتوم؟

وقف العنصر المكلف بالتحقيق ينتظر استكمال مهمته. أمره حاتم بأن يتركهما ويخرج. زمجر المحقق وحاول الاعتراض. هو الذي جاء بها للتوقيف وعليه أن ينهي استجوابها. صاح به:

- نفّذ ثم ناقش.

ناغش. قالها بلهجته الريفية. خرج المفوّض وأغلق الباب وبقيا وحيدين. لم يتبادل معها أي حديث. لا يريدها أن تتعرف على صوته وتكشف من يكون. هي الرهينة هنا وهو السجّان. كما في الأفلام. أسيرة كسيرة مسلوبة الإرادة يشعر أمامها بأنه المهزوم. حرّك فيه منظرها مشاعر تصوّرها ماتت. كان يراقبها وهي تمضي للقاء رفيقها الفاسد. حاول حذفها من شاشة مشاعره. وهو الآن

سجّانها وهي الرهينة. يتمنى لو تبكي لتحيي عنفوانه. لو تستعطف وتتوسّل وتنكر تهمتها. تستحلفه بالعزيز الغالي أن يتركها تمضي إلى أهلها.

استشعرت بشيرة وجوده في المكان ولم تنطق. عمياء لا تعرف من أي وجهة ستأتيها اللطمة. لا تعرف حتى شكل المكان ولا أين تكون. بقي يتأملها ويقيس ضعفه أمام عاطفته. في صدره ديوان مدفون كتبه فيها. شغف ملتبس بالمختلف والممنوع. غير أن أقبية المعتقلات هي آخر الأمكنة الصالحة لتجميع شمل الأحبة.

جمد في مكانه ولم يجلس. حركته ستقلقها وهو يريدها أن تطمئن. يمضى الوقت وهو تمثال. حلم طويلًا بخلوة معها في مكان أفضل من هذه الغرفة البائسة. تيبّست ساقاه من الوقوف. خرج وأقفل الباب وراءه. عاد ومعه شاي وسميط. أمسك يدها فانكمشت داخل ثوبها. حلزونة تحتمي بقوقعة. وضع الإستكان في يمناها بدون أن يتكلم. وفي الكف الثانية قرص السميط. سحب الكرسي وجلس يتأمل ضعفها. مثيلاتها يذهبن إلى الإعدام في غفلة من الزمن. محجبات وسافرات يطويهن الموت تحت التعذيب. يختفين ولا يعرف الأهل مصائرهن.

يحاول الرفيق حاتم أن يؤلِّب قلبه ضدها. هي من أولئك الشابات الصلفات. تصورن السياسة لعبة خواتين. مضحوك عليهن بعبارات مستوردة وشعارات متعفنة. خلّ فاسد تتحرك فيه الديدان. عواصم خارجية تؤلف وبلادنا تقرأ. أراد أن يقنع نفسه أن بشيرة

مذنبة. لو وضعت عقلها في رأسها لَمَا انزلقت إلى هذه الحفرة السبخة. لكنها البنت التي يرفّ لها قلبه. مطروحة تحت رجليه. يمكنه أن يرفسها ويصبّ فيها أحقاده أو أن يلمّها إليه ويشبع منها شمًّا وعناقًا.

أحضر لها بطانية وأقفل عليها الباب، مجددًا، واحتفظ بالمفتاح. نام تلك الليلة وليلتين بعدها على سرير سفريّ في الموقف. وفي الليلة الرابعة أنهى أوراق إخلاء سبيلها. أخذها في سيارته معصوبة العينين وأنزلها عند باب بيتها. مضى بدون كلام.

غزوان البابليّ

يذهبون إلى جلسات الكلام وكلٌّ في وادٍ. ليس في النوايا تصفية حسابات. يأخذ الحاتمي مكانه بينهم ويقرر أن يكون آخر المتحدثين. حكايته عادية بدون مفاجآت ولا مطبّات. ضابط درس القانون وخرج عليه. تحدث في أحسن الديمقراطيات. ليس في التفاصيل طرائف ولا حشاشون. لا نملة تغلب فيلًا ولا عشيق ينتظر الباص في الدولاب. حتى دخوله الحزب كان عاديًّا بل بديهيًّا. أراد أن يصبح صحافيًّا وقسم الصحافة لا يقبل سوى الحزبيين. انتمى بقراره الخاص وبتشجيع من رفيق عمره. فرحوا به لأن قامته تنفع في المواجهات. عضلاته سلاح محليّ الصنع. تمرّن في الأزقة ولم يدرس الصحافة. بحث عن طريق أسرع للارتقاء.

تبدأ الجلسة ويأخذ أحدهم الكلام:

- أنا غزوان واسمي الحركي أبو العباس.

- أهلًا غزوان.

يرحبون به بصوت متراخٍ مثل جوق نعسان خلف مطرب. ولم يكن المغني يملك ما يشجيهم ويطربهم. حكايته بشعة مؤلمة. عاش خيبات متتابعات لا تجتمع في عمر واحد إلا لعراقيّ. يتكلم غزوان بعربية فصحى وبنبرة وعاظ المساجد. ينقلب لسانه، فجأة، عندما يروي طرفة بلغة الشارع. بدأ حكايته من أولها. لا يجيد الفلاش باك ولا التقطيع الحاد السريع. عاد بهم نحو بواكير صباه. يحكي وينفعل ويمسح عرقه. يستطرد كأنه ينوي أن يستبقيهم أيامًا ولياليَ. وهم يتابعونه ويهزّون الرؤوس. يعدّلون من وضع الساق على الساق. ينحنحون ويتململون على كراسيهم فيفهم القصد. سيمضي إلى صلب الموضوع.

تطلّع بعينين ماكرتين إلى حاتم وبشيرة. كأنّ دلاله خارج الدائرة. إنهما الوحيدان بين الجماعة من عانى احتدام تلك الفترة. كانا مثل علوان. ابن عمه. أطعما السياسة من لحميهما. يتجهّم غزوان وتخونه روح الدعابة. يتوارى المهرج الساخر وتظهر ملامح بيدق من ملحمة الخسارات. لاجئ بلحية خفيفة، يتسلى بنتف شعيرات من ذقنه وحاجبيه. قبلوه ومنحوه الإقامة على مضض. خافوا منه لتشدده وأحاديثه في حلقات المهاجرين. سألوه في مركز الاستقبال عن مهنته السابقة. أبرز نيوب الليث وأجاب مبتسمًا:

- مناضل تربية سجون.

- ماذا تعني؟

- أعني واحدًا من الذين دخلوا السياسة بقبقاب الحمّام.

يتحرج أن يعترف بأنه فشل في نضاله. تحكمه فكاهته الأقوى منه. سبيله للتملص. أراد أن يختصر في هذه الجلسة لكنه أطال. كان المحيطون به يعرفون تلك العناوين، أو لقطات منها. يغضون أعينهم ويهمهمون. توجعهم ذاكراتهم لأنه تاريخ كل منهم. تختلف التفاصيل بين هذا وذاك والعبرة بالخواتيم. تقاتل الإخوة الأعداء وتوعّد بعضهم بعضًا. هبّت على أرضهم الطيبة ريح صفراء. عبثت العقائد بالعقول. طاش صواب البلد.

علوان، ابن عمه، كان من قياديي الطائفة. احتوى الولد المراهق وسحبه إلى الجماعة. خاض الجهاد بتجربة حافية وعضلات رخوة. وسرعان ما اشتد عوده. اكتشف دنيا أخرى تجري في دهاليز سرية. حضر دروسًا أعادت صياغة دماغه. أخرجته من شرنقته وقسمت له العالم برزخين. تدفع الكتب والقراءات جدران غرفته الضيقة فتصبح أوسع. تنفتح كوّة في سقف بيتهم فيرى السماء. كان صبيًّا يلعب في الشارع حين شاهد صورة آية الله للمرة الأولى. سمع تسجيلاته وراء باب مقفل وشمعة ذابلة. موجة عاتية اجتاحت ضاحيتهم الفقيرة وسرت في أحياء مجاورة.

أخذه علوان، مرتين أو ثلاثًا، إلى مدن على أطراف الصحراء. تربّع على السجادة متهيبًا أمام سادة حفظوا مخطوطات عتيقة، مفوهين في الكلام والتفسير. يروون سيَر الأئمة ويتجادلون في

مدارس الفقه. حصل على كتب ممنوعة ومنشورات جديدة. تعرّف على رسوم لشهداء ورموز من آل البيت. أعطوه اسمًا حركيًّا وكلّفوه بمهمات بسيطة. يتبنى الاسم الجديد ويكبر به. يصبح رجلًا حقيقيًّا، يؤدي الفرائض ويتبع الأولياء. يقرأ آيات ترجمت معانيها إلى كل لغات الأرض. يرددها خاشعًا فتندى عيناه.

اشتعلت حرب إيران وشاهد العجب. لم يكن بالغًا لكنه عاش حكايات يشيب لها الراس. قتلى ومعطوبون. ثكالى وأيتام. جنائز لا تنقطع تدور حول المراقد وتحت القباب المذهبة. تنتهي في وادي السلام حيث تنشف الدموع. اختلطت اللحى على رجال الأمن ما بين سلفيين ودعوة.

- لكل فئة موديل. ذقن مثلث صغير أو لحية مرسلة.

تحولت اللحية إلى دليل إدانة. أنت ملتحٍ إذًا أنت ضدنا. يحلق المراهق الشعيرات القلائل التي كان يستعجل نموها فوق شفته وتحت ذقنه. لا ينسى ذلك الصيف الذي اقتيد فيه للتدريب خلال العطلة، مع رفاقه الطلبة. يبدأ الفجر بنسمة عذبة في معسكر منصورية الجبل، غير بعيد عن ديالى. ثم تلتهب الشمس وتحرق جلده وجلود من خلفوه. الويل لمن يتذمّر أو يسأل.

- ارجع وازحف حول الساحة ثلاث مرات.

- عريفي ليش؟

- بلا ليش... هذا جيش.

يتناولون فطورهم في الرابعة والنصف، قبل جولة التدريب الأولى. شوربة عدس وصمّون جيش. قدح شاي مع كافور. وفي الخامسة ينتظمون في مجموعات ويهرولون. يملي عليهم عريف الفصيل أهازيج ساذجة يرددونها وراءه بأعلى صوت:

- يحبنا مثل ما يحب حلا.

- يحبنا... يحبنا... يحبنا.

يتباهى العريف بأنه مخترع الأهزوجة الفذة. المعنويات حديد والويل لمن يبتسم. يمر عليهم بعصاه أثناء تناول الفطور ويتفنن في إهانتهم. تردد غزوان، ذات صباح، في تناول شوربة لا يعرف فحواها. رائحتها منفرة ولونها كخراء الرضيع.

- تستنكف جنابك؟

- العفو عريفي بس والله شبعان.

رمى له العريف مزعل سحلية طويلة في القصعة. أمره أن يأكل فامتثل ثم أفرغ ما في جوفه. أيام سود تبقى نزهة شاعرية مقارنة بما تلاها.

ينقذه انتهاء وقت الجلسة من محنة التطهّر. يقوم ويتوجه إلى غرفته. لا يذهب معهم إلى المطعم. مزاجه سوداوي وبشاشته تخلّت عنه. يتمدد على السرير العريض وينتف شعيرات من ذقنه. حركته العفوية الدائمة. الصور مستمرة في رأسه. ترك ابن عمه بيته واختبأ عندهم. جاءهم في مساء مطير على دراجة هوائية وأقعى في غرفة

خلفية. حجرة نصف مسقوفة فيها منقلة لتخدير الشاي. يذهب إليه بصينية الطعام ويراه يصلّي. يحاول أن يفهم كيف تحول معلّم الجغرافيا اليساري حديث التخرج إلى متدين صلب.

عمه، أبو علوان، كان متحمسًا للثورة ومن أنصار الزعيم. رقص في الشارع يوم الرابع عشر من تموز. تفرج على سحل الجثث. تفسيخ الأوصال. همجية ملعونة يستعيدها العم بمباهاة. بدون نظرات أسى أو ندم. حتى زوجته أم علوان انضمت إلى المقاومة الشعبية. سمع الحكاية من فمها. رأت صورة عبدالكريم في «الجمهورية» فخطفت الجريدة وقبّلت صفحتها. خرجوا يهزجون وهم يفردون أوراق الجرائد فوق رؤوسهم، تحميهم من لهب تموز. رائحة الحبر تختلط بعرقهم وأصحاب الدكاكين يرشّون عليهم الماء البارد.

أخبرته زوجة عمّه بأن نساء البيت خلعن عباءاتهن وخرجن للاحتفال في المواكب الشعبية. مهرجانات الفرح في شارع الرشيد. صعدن إلى شاحنات مكشوفة مزينة بالأعلام وحَمَامات السلام. يتعرفن على كلمة مهرجان للمرة الأولى. يرجعن في آخر المساء وقد بحّت حناجرهن من الغناء والهتاف. وكان التلفزيون يلعلع كل مساء في بيت مدير المدرسة. وحده الذي يملك الجهاز السحري. يذهبون إليه ويتفرجون على محاكمة أقطاب العهد الملكي.

– كلنا أيّد الثورة. الجمهورية الفتية. وما قبلها عهد بائد.

– وأمّي... هل خرجت في المسيرات؟

- لا. أمك تعجبها نفسها.

اكتشف غزوان ماضيًا مضطربًا للعائلة. احتفظ عمّه في مكتبته بالمجموعة الكاملة من مجلدات محكمة الشعب. قرأها وشاهد في صفحاتها صور رجال ذوي بدلات إفرنجية، محجوزين في قفص الاتهام. ومحاميًا منتدبًا يقف للدفاع عنهم. يسميهم المدعي العام أذناب الاستعمار. ضابط مزهو ببزته العسكرية ونجماته وشبابه. يقرأ عريضة الاتهام وبعد كل جملة «تصفيق». الكل يصفّق. الحاضرون في المحكمة والمتفرجون في البيوت والجالسون بالدشداشة أمام الشاشة في مكانها العالي. وصل اسم المهداوي إلى كل بلاد العرب.

دودة خبيثة تتحرك تحت جلد غزوان. تخربشه فيندفع لقراءة التاريخ القريب. أدمن كتب المذكرات. الصادق الأمين منها والمزيّف. قرأ عن مشانق نُصبت في السجون. وفي ساحة أم الطبول. وجبات الإعدام تتوالى. الحبال للمدنيين والرصاص للعسكريين. انتهى عهد الخوف وخرجت الرايات الحمر من مكائن الخياطات. يغني الراديو بالعربية والكردية. أناشيد بالتركمانية والأرمنية. كل ذلك والدم يجرّ الدم.

ألقى بنفسه في رحاب الطائفة. أراد انتقامًا من سنوات التجنيد والمذلّة. تخفّى وموّه وكتم الحرائق في صدره. انتظر لحظة الخلاص. وكانت الأشهر تنقضي ومن بعدها السنوات. والأذرع الطويلة تمتد وتسحب الرجال والنساء وتذهب بهم وراء الغياهب. مذهبك تهمتك.

في سنته الجامعية الأولى جاءته أولى الضربات. اقتحم البيت رجال جرّوه من فراشه. أيديهم مزّقت دشداشته. عصبوا عينيه وألقوا به في شاحنة مسقوفة مع آخرين كثيرين. وقفوا مرصوصين مثل السكائر اللف. انتقل الكردوس إلى غرفة جرداء لا موضع فيها للاتكاء أو إسناد المؤخرة. يسأله المحقق:

- أين هرب الكلب ابن عمك؟

- والله العظيم لا أعرف.

يضربونه بالصوندات. يطفئون سكائرهم في خديه. يشتمون جماعته وحريم بيته. مقدمات وبعدها يبدأ الفيلم. قلع أظافر. صعق بالكهرباء. تعليق بمروحة السقف. قعود على قناني البيرة. فولكلور شائع متوارث. صناعة وطنية أو مستوردة. تجارب ضرورية لتأصيل الرجولة. صمد من صمد ومات من مات. وهناك من اعترف وخان. كان يحتمي بسيرة شهداء سبقوه ويزداد بأسًا. يستحضر حسّ الهزء الكامن فيه ويقلب الأوجاع مساخر. يعيد في داخله إخراج الدراما ويحوّلها كوميديا. غادر التوقيف شبه محطّم وذاب غيره في ماء النار. تخفي أحواض التيزاب جسم الجريمة.

لم يكذب حين أنكر معرفته بمكان ابن عمه. لم يعترف لأنه لا يدري. اختفى علوان وراء الحدود وبقيت في رأس غزوان البابليّ فراغات كثيرة. انتظر اللقاء به لعلّه يساعده في ملئها. غاب ابن العم سنوات وأشاعوا بأنه أسير. ثم ظهر فجأة باسم جديد وملامح منطفئة. يشعل السيد علوان سيكارته من بقايا سابقتها.

يوجّ نارها من بين أصابعه المزينة بالمحابس. يسحب النفس من صدر منخور.

- أين راحت أحلامك القديمة يا ابن العم؟

- أستغفر الله.

المُبشِّرة

يناور مانو بالكرة في حديقة الدار. يرافقه جهاز التسجيل حيثما تنقّل. من المطبخ إلى الصالون. من الصالون إلى غرفة النوم. من الغرفة إلى الحديقة. يدير شريط توم جونز ويسمعها «ديلايلا». أغنية قديمة يحفظها لأنها على اسمها. يلعب ويصاحب المغني بصوته وهي أميرة تتربع على الأرجوحة. تتابعه يتحرك آليًّا مثل رقاص الساعة. ينقل الكرة من قدميه إلى صدره. من رأسه إلى قدميه. يضربها بعارضة الأرجوحة يقصد لفت انتباهها. وهي لاهية عنه تأكل حبات النبق الناضجة التي سقطت من الشجرة. يحبّها ويلملم لها النبق من كل حدائق الجيران.

– ماي ماي ماي ديلايلا... واي واي واي ديلايلا..

– لست ديلايلا. أنا دلاله.

وقعت دلاله في قلبه وهي طفلة. كان أكبر بحفنتين من السنين. نجم من نجوم فريق القوة الجوية. تزوجا يوم نيلها شهادة الدراسة

المتوسطة. ارتدت بدلة عرس مستأجرة ولبس عريسها الطقم الأسود الذي تزوج به ابن عمه. أراد أن يلبس البزة الخاكية لكنها اعترضت. لم يكن عسكريًّا حقيقيًّا. أخذوه من الساحة الترابية في الحبَّانية إلى الجيش. لم يتدرب ولم يحمل سلاحًا. أرادوه في فريقهم وصار يحمل رتبة عريف.

وفي أحياء الفقراء لا يولد لاعب مثله كل يوم. في قدمه مغناطيس يسحب إليها الكرة. يدور حولها حتى تدوخ. يجري بها في خط متعرج ويصل إلى المرمى. يصوّبها طلقة في الهدف. أدار ظهره للحارس، في واحدة من المباريات، وطوّح بالكرة إلى الخلف. طارت من فوق رأسه واستقرت في الشبكة. لم يسجّل أحد قبله هدفًا بالمقلوب. صار اسمها تسديدة مانويل. يقف الملعب على الأقدام ويهتف المشجعون باسمه. يتملّص من عناقات رفاقه ويجري سعيدًا نحو المنصة. يتطلّع باحثًا عن وجهها.

- اسمي دلاله وأنا مبشّرة.

- دلّالة؟

ـ لا، دلاله، بدون شدة. ويُلفظ دلالي.

قالت لهم إنها تحب اسمها. معناه البنت المُدللة. اختاره لها جدها من أسطورة آشورية متوارثة. كان الجد يرويها في سهرات جبل عمادية. ينشد بصوت حزين بعض مقاطعها. جاء في الحكاية أن امرأة شابة دُفنت داخل جسر دلاله في زاخو. اعتاد الرافديني

القديم أن يقدّم النذور إلى الآلهة لكي تساعده في إتمام ما يعجز عنه. وكان هناك بنّاء شديد الساعدين اسمه يوخنا، فشل في استكمال عمله في الجسر. خجل من أبناء عشيرته لأنه كان أمهر البنائين وأقدمهم. تضرّع إلى ربّة العمّال أن تعينه. نذر أن يضحّي بأول نفس حيّة تصل إلى مشارف الجسر. سيدفنها في هيكل البناء. ويشاء القدر أن تكون زوجة ابنه أول الواصلين. جاءت مع كلبها تحمل له الغداء. والنذر نذر. ولا بد من الوفاء به. رمى بها في الهاوية ودفنها بقلب مُلتاع. اكتمل الجسر وعاش يوخنا حزينًا حتى مات. تمنى لو أن كلب الحراسة الذي رافقها وصل قبلها. لكن قدرها سبقها.

تجلس دلاله في حلقة الاعتراف وتحكي عن إيمان نذرت نفسها له. يسكن روحها ودمها وكل أحشائها. قيل لها إنه مسّ لكنه ليس بالمسّ. يسكت الآخرون ولا يقاطعونها. نظراتها عميقة وصوتها حاد. كلماتها واضحة رغم لكنتها الثقيلة. يستمعون إليها ولا يفقهون أي نذر هو ذاك ولا أي إيمان. يجمدون من غرابة الحكاية. أصنام في حضرة ربّة آشورية. تستقر على قاعدتها في وسطهم ويطالعونها صامتين. يحاولون فهم ما كانت تبشّر به. أنبي مجهول أم دين جديد؟

عشقها مانو ودللها وكانت تتمرغ في حبّه. لكن إلهًا آخر أخذها منه. معبود تولهتْ به على كبر. أفقدها إيمانها التقليدي وسيطرتها على نفسها. دخلت في سبيله السجن مرّة أولى، ثم ثانية، ثم لم تعد تحسب. يعتمد زوجها على مكانته كنجم رياضيّ ويدور على

أصحاب الحلّ والربط. يتحوّل البطل المحبوب إلى متسوّل يطلب الرأفة.

- زوجتي مريضة في عقلها. مجنونة.

- بل عنيدة ولازم تتأدب.

يسحبها مانويل إلى مطران طائفتهم. يضع الرجل صليبه الذهبي على جبهتها ويتمتم بالصلوات. يخرجان من عنده وهي تسخر بالصوت العالي من الهالة الزائفة لرجال الدين. يأخذها إلى عيادات الأطباء النفسانيين ويبرمجون لها جلسات علاجية. يكتبون لها الوصفات. كل منهم يؤكد أن حسبتها بسيطة. لكنها تراوغ. تستكين لبرهة وتتظاهر بالشفاء. تلك عقيدتها ولا شفاء لها منها. صمغ يلتصق بعروقها. مخبولة مستعدة لأن تهجر دنياها كلها في سبيل ما نذرت نفسها له. تترك أبناءها وأباهم وكل أهلها وملّتها. يحبسها زوجها في غرفتها ويوصي الأولاد بمراقبة أمهم. تستغل فرصة سفراته وتهرب من البيت. تعود إلى التبشير بما باتت تؤمن به.

تخرج في الأمسيات الباردة وتقرع الأبواب على الناس. الأقارب والغرباء. تحمل حقيبة المنشورات وتخاطبهم مثل راهبة. توزّع عليهم كتيبات تدعو البشر الغافلين إلى أن يكونوا من شهود يهوه. لا يهمها أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين. شيعة أو سنة. من الصابئة أو البرتكيش. لا خلاص لروحها إلا في هذا المسعى. لن تموت كافرة ولن تترك الآخرين يموتون من دون يقين الحق. غير

أن عيون الأمن لا ترتاح لأي نشاط يتجاوز أهدابها. يقبضون عليها ويهددونها. تخرج وكأنها لم تسمع التهديد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يتململ غزوان البابليّ:

- ما هي شهود يهوه؟

- نحن في جلسة تعارف لا تبشير.

يقاطعه الدكتور بلاسم. وبلاسم مثل غزوان لا علم له بحقيقة أولئك الشهود. ما الذي أوصلهم إلى العراق؟ عاد إلى حاسوبه وقرأ عنهم ما يتيسّر. كان يعرف مهووسي العروبة. ملتاثي الشيوعية. متطرفي الأديان لكن لا تجربة حقيقية له مع شهود يهوه. سمع بهم بشكل عابر ولم يعرهم اهتمامًا. زارته مبشرتان منهم ذات يوم في بلد هِجرته. قرعتا جرس الشقّة وطلبتا الدخول. كان لاجئًا جديدًا يلتزم الحذر. يغلبه الشك فيمن يطبّ عليه بدون موعد. اعتذر منهما وأخبرهما أنه لا يفهم لغتهما. قالت إحداهما بالإنجليزية إنهما من شهود يهوه. هزّ رأسه وأبقى الباب مواربًا. تركتا له كتيبات وانصرفتا. رمى الورق من فوهة النفايات الموجودة في جدار المطبخ.

لا تلتزم دلاله بملاحظة بلاسم. رسالتها في الحياة التبشير في كل وقت ومكان. طائفة لا تعترف بغيرها من الطوائف. نشأت في أميركا قبل أكثر من قرن. يعرف أفرادها الكتاب المقدس لكنهم يرفضون شفاعة القديسين. قاطعوا كل المظاهر الكنسية والاحتفال بميلاد المسيح. يربطهم فيما بينهم وثاق متين ولا يعترفون بالحواجز

العرقية أو القومية. محايدون سياسيًّا ولا يخدمون في الجيش. جعلوا من أنفسهم شهودًا ليهوه، أي الله. يبشرون به حيثما حلّوا. يدخلون على الناس في التجمعات والأعراس والمآتم ويعرضون دروسًا مجانية لفهم عقيدتهم.

بقوة الدفع الأميركية وصلت الفكرة إلى الشرق. آخ من بلاوى أميركا. وكانت زوجة مانويل واحدة ممن تلبستهم البدعة. كثر المبشّرون بعد أن ضاقت معيشة الناس في الحصار. تعب العراقيون وافتقر الميسورون منهم. تسللت جماعات غربية وبدأت توزع المساعدات على مرتادي الكنائس. دولارات وملابس وأحذية ومعلبات تأتي من الخارج. ودلاله التي غسلوا عقلها كانت مقتدرة وعزيزة نفس. لم تقبل الصدقات ولا التكرّم بغير ما تملك. باعت ذهبها ودارت على المحتاجين تغريهم بالنقود. تشتري لهم الدقيق والسكر ولأطفالهم الحليب المجفف.

يعود مانويل من تدريبات فريقه ولا يجد كؤوسه وميدالياته على رف المكتبة. أخذتها زوجته إلى تجار الأنتيكة وتسلّمت ثمنها. كأس البطولة الفلانية بكذا ألف دينار. كل شيء يهون في سبيل عقيدتها. وهو عاجز إزاء دلاله. تقدّم في السن وتعبت الماكنة. ينظر إلى حبيبة عمره فلا يجد بريق العاشقة في عينيها. تحولت نظراتها إلى لمعة معتوهين. يكذب على الأقرباء وينفي انشقاق زوجته عن طائفتهم. يقول إنها إشاعات. الكل يرثي لحاله ولا أحد يصدّقه. العيون تراقب وكتبة التقارير حاضرون.

قبضوا على دلاله مع عدد من رفيقاتها بتهمة ممارسة نشاط محظور. يذهب ويتوسط لها بكل ما بقي له من حظوة في النفوس. يعود بها إلى البيت فتقاطعه ولا تتحدث معه. يسمعها تتلو صلواتها وتدعو له بالهداية. أخذها معه في إحدى سفراته إلى الأردن وبحث لها عن علاج. كانت تغافله وتخرج إلى السوق تبحث عمن يستمع لهذيانها. ترى مجلس عزاء فتدخل على النساء وتبادرهن بالكلام العجيب. خاف عليها من الأصوليين وذهب يشرح ورطته لمفوضية شؤون اللاجئين. سيقتلونها لو بقيت في البلد.

وصلا النرويج على أمل أن يلحق بهما الأولاد. لم يكن الاشتياق سبب كآبة دلاله. أحزنها أنها لا تفهم لغة البلد ولا تحسن التبشير بين جيرانها. وانتقل سوء المزاج إلى مانويل. لم يستوعب الانحدار من خانة البطل المحبوب إلى درك النكرات. عاد إلى بغداد وحاول استعادة شعبيته. ترك زوجته في البلد الغريب وأمرضه اشتياقه إليها. ما زال يحبها ويخاف عليها. يأمل أن تستعيد رشدها. ضربه داء السُّكري وخذله قلبه. لم يعد قادرًا على مغازلة الكرة. أخذوه مدربًا للمنتخب. يجلس في الملاعب جانبًا يعطي تعليماته للاعبين. يصرخ من القهر حين يفلتون فرصة ثمينة. يكاد يقوم من مكانه ويسحب الكرة إليه بمغناطيس قدميه. يضعها في الهدف ويسمع المشجعين يهتفون باسمه. «يلعب أبو داني حلوة ملاعيبه». الكل يحبّه لكن هناك بين ذوي القربى من يمسكه باليد التي توجعه. يعايره بالزوجة الخارجة عن الملّة.

أزمة قلبية تعقبها أزمة. والزوجة بعيدة في صقيع الشمال. يجمّد الشتاء أطرافها. تخرج متلفعة بالأوشحة. تسير في الغابة القريبة. تنغرز جزمتها في الوحل وبقايا أوراق الخريف. تشمّ خشب الصنوبر وتفتقد روائح تلك البلاد. شلال بيخال. بحيرة الحبانية. عطر النارنج في حدائق البيوت. البيوت الفسيحة بسقوفها العالية المعقودة التي تتّسع لكل المحبين. مطبخها هناك أكبر من شقّتها هنا. تغنّي لنفسها: «واي واي واي ديلايلا» وتسمع حسّه يأتيها مع حفيف الشجر وهبّات الريح. تتوقّع الخبر الصاعق كلما رنّ الهاتف. فرضت على نفسها الحداد قبل الأوان. تطلب في صلواتها المغفرة لمانويل وتبكي. أفنت سنواتها في التبشير ولم تتمكن من هداية حبيب عمرها.

تتوقف دلاله عن استرسالها. تمسح عينيها. تهزّ رأسها وكأنها تنفض عن شعرها غبار ما فات. تهتز التماثيل الجالسة حولها فوق المقاعد. الكل تحت سطوة حكايتها. يختنق السؤال في الحناجر:

- وشهود يهوه؟

- ما زلت واحدة منهم.

- تواصلين التبشير؟

- أنا شاهدة خرساء.

مواهب

أحاول، مع كلّ حبّة جديدة أبتلعها، أن أقيس المسافة بيني وبين مبادئي. كم شبرًا ابتعدت بفضل العلاج؟ أرى الحزب ماثلًا هناك. يقف فوق رأسي. يرصدني وأنا أشرب كأسي. يحرسني وأنا نائم. شبح صلد أسود مثل تمثال الأوسكار. يشبك ساعديه القويتين على صدره العريض. يخاطبني بصوت يشبه جهاز الرد الآلي: الشخص الذي تطلبه مشغول. عاود الاتصال.

في ساعات ضيقي هناك. حين يشتدّ حنقي وتوجعني كرامتي، كنت أتسرب من صالون بيتي أو من اجتماع الرفاق. أقفل عليَّ باب غرفة نومي. أنزلق إلى خندقي وأمارس ألعابًا صبيانية. أحذف الحاء من كلمة الحزب. أزحزح نحو اليمين النقطة التي فوق الزاي. أضعها فوق الحاء. أشعر بارتياح جبان يرضيني لبرهة من الزمن. أكتم ألاعيبي في حنجرتي. أحاذر الجهر بها. لو تلفّظت يقطعون رأسي. لن يكتفوا بلساني. أنا منهم ولست ضدهم. لكن الخوف ملك الزمان والدرب مسدود ما بين الفكرة والشفتين.

في بازل انفتحت الطريق وزال الحذر. لم يعد الدكتور بلاسم يجلس معنا في الحلقة. يقف أمامنا ويطرح علينا استفسارات مربكة. يأتي كل يوم بسؤال جديد يخلخل ما بقي فينا من توازن. نتطلع إلى وجهه صامتين. نستنكر الأسئلة الهازئة لكننا اعتدناها. كنا نستمرئ اللعبة. يستلّ كل منّا سكينًا من ذاكرته ويبدأ بتقوير أحشائه. تتجمع على المائدة مصارين وأمعاء غليظة عشنا نتستّر عليها.

– ما هي مواهب السياسي المنافق. الوضيع. الحشرة؟

يسمح لكلّ منا بتحديد ثلاث صفات. نظر إليَّ غزوان والتفتت نحوي بشيرة. كنت دائمًا مركز الثقل في الحلقة. على الوجوه ابتسامات صفراء وفي النفوس زكائب ملأى. ماذا يريدان منّي؟ لست أكثر نفاقًا من جيش الدجّالين وشعراء العطايا. أما الوضاعة فأمر آخر. لن أفتح فمي بالكلام. تلك كارثة سحقت إنسانيتي. وحش تناول سلاحه ذات صباح وذهب للمقتلة. سأبقى مستمعًا حاضر الذهن. طوى الماضي في بقجة النسيان. أكسر يد من يفضّها.

وجدتني بشيرة ساكتًا فأخذت الكلام: مكتبة سُر مَن قرأ

– للمقاولين دفاتر شروط. وللحزبيين كذلك. المنافق يلتزم بثلاثة منها: يبصم على كل ما ينطق به المسؤول. يتطوع للوشاية. يتنافس في امتداح الرفيق الأعلى.

ضحك غزوان وشاركته الضحك. انتبهت بشيرة إلى المعنى المزدوِج للرفيق الأعلى. امرأة في الأربعين. جرّبت الاعتقال والتخفّي

والمنفى. ما زالت تحتفظ في مكمن من روحها بسذاجة طفولية. أتدخل وأقول لها إن الصفات التي ذكرتها عادية، لا تستحق الالتفات. تردّ عليَّ:

- وما هي الحقارة الحقيقية؟

- أن يطلب منك المسؤول شبرًا فتمنحينه مترًا.

وغزوان القادر على تحويل أي مأتم إلى حفل فرفشة، يسخر منا نحن الاثنين:

- الحقير الدودة هو الذي يكتب التقارير ضد الأبرياء بأسلوب بريء مبطّن بالخبث.

- هذه واحدة، فما الثانية؟

- أن يتهرب من الواجب بادعاء أن المخاض فاجأ زوجته وهو في المستشفى.

- هل مارست هذه الحيلة؟

- تمخضت زوجتي خمسين مرّة في خمس سنين.

حتى دلاله السيدة الرصينة المؤمنة خايفة الله كانت تضحك مثلنا جميعًا، على غير عادتها. بين وجهها والبشاشة ثأر قديم. لكن قهقهتي كانت الأعلى. أتباهى أمام المعارف والجيران بأنني حزبيّ كبير. أغيب عن الدوام زاعمًا أنني مسافر في مهمة سريّة إلى أوروبا. يحسدونني ويتصوّرون أنني في حضن أشقر أشرب الشيفاز وأدخّن

الهافانا. بينما أكون في صحراء الرمادي، أسفّ الغبار بحثًا عن مشبوهين هاربين.

- وأنت يا ست دلاله، من هو الوضيع برأيك:

- هو من يغوي زوجة أقرب أصدقائه.

أَدلَت المُبشّرة بدلوها وعادت إلى قناع القديسات المتبتلات. تلقي الكلام على عواهنه. تسقط عواهن آرائها على رأسي صخرًا جلمودًا. حافظتُ دائمًا على شعرة الود بيني وبينها. أبالغ في احترامها وتردّ إليَّ الجميل. تساعدني في الترجمة. أدير نظري بينها وبين بشيرة لكيلا تفضحني عيناي. ولو كان الأمر بيدي لما رأيت غير الخانم بين الجالسين. أجعلها قبلتي في كل الجلسات. لم تغب همومي عن فطنة بلاسم. يشرب البيرة معي ولا يجرؤ على السؤال. لا أظنه الوحيد الذي انتبه للسواقي الجارية بين قلبي وقلبها. وحين يكون الحب عارمًا فإنه يأخذ العقل من موضعه في الجمجمة ويحشره في المؤخرة. لم أعد قادرًا على التفكير الحصيف. مراهقتي المتأخرة تشقيني وتطلب دواء.

بغداد في دورناخ

للحبّ الأول دوخة وللحبّ المعتّق ألف دوخة. تلامس جسدانا حين كنا في طريقنا إلى دورناخ. لم أكن فتيًّا ليجتاحني مسّ كهربائيّ. كل ما هنالك أن دفأها سرى إليَّ وكان فوق ما أشتهي. إحساس منعش مُبطّن بمخاوف شتّى. أخشى أن تأتي الرياح بعد انصراف السفائن.

يتركون لنا، كل يوم، نشرات إعلانية عن مناسبات ثقافية جديدة. مسرحيات. ندوات. حفلات موسيقية. نراها على الرف في مدخل المطعم الجامعي. ما زلت أسمّيه جامعيًّا رغم أن لا كليّات هناك بل مبنى لضيوف من الشتات. تعلمنا نظام الخدمة الذاتية. سيلف سيرفيس. تمد يدك لتأخذ الصينية وتجد عشرات الدعوات أمامك. معارض رسم. حلاقون. وشّامون. جلسات يوجا. معلمو لغة ألمانية. أجمع نسخًا من تلك البطاقات الملونة لكي أسلّي بها وقتي. أتعرف على حياة المدينة. أقول لنفسي: ليس في البار وحده يحيا الإنسان. الانفتاح الثقافي ضروري للتأقلم مع القوم الجدد. أُخرج

من قوقعتك أيها الرفيق وخالطهم. أشجّع نفسي على المشاركة وأبقى في مكاني. لا رغبة لي في تلبية أي دعوة من تلك البطاقات الملونة المغرية.

بشيرة هي التي لوحّت لي، ذلك الصباح، بإعلان عن معرض لفنانة تشكيلية يقام في دورناخ. وأنا لا أعرف أين دورناخ ولا هي تعرف. أعطتني ورقة الدعوة وألقت عليّ دهشتها. قرأت البطاقة وفهمت أن الفنانة تُدعى مايا رايدر. بالألمانية يكتبونه ماجا. اسم لا يعني لنا شيئًا. المفاجأة في اسم المعرض: «بغداد»!

لا يمكن للمدينة اللعينة الحانية أن تلحق بنا إلى هنا. اخترق عنوان المعرض مجال رؤيتي. صاروخ أرض عين. وريقة بيضاء صقيلة مطوية وموشحة بشريط أزرق. على صفحتها اسم الفنانة وموقع معرضها. أخذت الاعلان معي إلى المطعم. وضعته على الصينية. إلى يسار طبق اللحم والبطاطا. كنت أستعجل الجلوس إلى إحدى الطاولات لكي أفهم ما فيه. وددت لو أقطع الأحرف اللاتينية بالسكين وألتهمها بالشوكة. أضيف إليها الفلفل وأمضغها على مهل. كلمة بعد كلمة. أتلذذ بدمها النديّ. الطباخون هنا لا يحرقون اللحم مثل بلادنا. الزبائن يفضلونه نصف استواء. أحمر بدمه.

لم أتبادل كلامًا مع بشيرة ونحن نأكل. كنا سعيدين بغنيمتنا. فزنا بجائزة نتكتم عليها تجنبًا للحسد. ذهبنا إلى الجلسة الجماعية المسائية بدون تأخير. تعودنا الانضباط مثل الساعات المصنوعة في

هذه البلاد. اتفقنا، بشيء من التواطؤ الخبيث، أن لا نخبر الآخرين عن المعرض. سنذهب معًا إلى حفل الافتتاح بدون زفّة الجماعة. يمكن للآخرين أن يذهبوا، لو شاءوا، في الأيام التالية. المناسبات الثقافية مجانية لنزلاء الدار. والمشرفون علينا يبالغون في تدليلنا. كأننا أبكارهم. قُرة أعينهم. يكفي أن نبرز هوية السكن عند الدخول إلى الفعاليات الثقافية. نحن VIP. أشخاص بالغو الأهمية!

فردت خارطة المواصلات، في استراحة القهوة، وبحثت عن دورناخ. شيء ما يجعلني مرتاحًا لأن المتحدثين بالألمانية يلفظون الخاء. مثلنا. ليس تمامًا. خاؤهم خفيفة وخاؤنا تجرح البلعوم. وجدت أن دورناخ ضاحية خارج المدينة، يأخذنا الترام إليها في عشرين دقيقة. الخط نفسه الذي يمرّ بمسكننا. نصعد إلى العربة الذاهبة يمينًا، بعكس النزول إلى وسط البلد. نعبر الشارع والسكّة الكهربائية ونركب من الرصيف المقابل.

لم تمانع بشيرة في مرافقتي. توقعت أن تتردد وتعتذر. رحّبت بدعوتي فهفّت عليَّ نسمة عذبة. لو لم تكن ميّالة إليَّ لطلبتْ من ابنتها أن ترافقنا. ذلك هو التصرف الطبيعي. لكنها لم تقترح أن نصطحب سندس، ولا أنا ألححت. كنت أتتبّع مسرورًا خيوط عنكبوتي تتسلل إليها. تداعبها وتمسّ الشامة التي بين حاجبيها. تلفّ نسيجها حول ذراعيها وخصرها. تشتبك بشعرها المرفوع مثل تاج. لم تذبل وسامتك يا سور الصين. ومفاجآت العمر لا تعرف حدًّا. ولا ذلك الدبيب الذي يخدّر الحواس. يمنح الأيام طعمها.

انتظرتها عند البوابة وجاءت عروسًا. هكذا خُيِّل إليَّ. لأول مرّة أراها ترتدي فستانًا ملوّنًا بدل التنورات القاتمة والسترات الطويلة. يتلوّن وجهها بزينة خفيفة وحمرة من خفر فطري. تلقيت عطرها منتشيًا، أُوهم نفسي بأنها تزيّنت لي وتعطّرت. أكتشف لذائذ عاطفة مؤجلة نامت دهرًا ونطقتْ دندنة. اهدأ يا رجل. تفرّج على الدنيا وهي تُقبل عليك بعد معاندة. تذوّقها رشفة رشفة. يواش يواش.

جاء الترام في تلك العصرية الدافئة وحلّقنا نحوه طائرين. حمامة وباشق. أحنيت رأسي كعادتي كيلا ترتطم هامتي بإطار الباب. جلسنا متجاورين الساعد قرب الساعد وثياب الصيف بلا أردان. أفسحت لها المجال لتكون عند النافذة وأكون من جهة الممر. لم أتعمّد الالتصاق بها لكنها طبيعة الأشياء. جسدي كثير والمقعد محدود. تركت نفسها مرتاحة ناشرة كيانها. لم تحاول الانكماش والابتعاد. كانت مطمئنة وعلى سجيتها. أراحني اطمئنانها.

– سننزل في المحطة الأخيرة.

– نعم، في الأخيرة...

وسكتنا. كنت ممتلئًا مكتفيًا لا أبغي مزيدًا. قانعًا بحصّة يومي وممتنًّا. نزلنا في محطة دورناخ ووقفنا على الرصيف. كائنان تائهان في فضاء موحش مفتوح. رأينا الركاب النازلين يتجهون يمينًا ويقطعون الطريق نحو شارع قريب فمشينا وراءهم. مددت إليها ذراعي فاتكأت عليها بمنتهى اليُسر. تلك أيضًا طبيعة الأشياء. كأننا زوج وزوجته. وكان هناك كشك لبيع الصحف ومطعم

للبيتزا ومفرق لا ندري إلى أين يقود. توقفنا عند الكشك وعرضنا على صاحبه بطاقة الإعلان عن معرض مايا ريدر فأشار نحو ما بدا أنه كنيسة.

درنا حول المبنى ولم نعثر على قاعة العرض. سألنا راهبة عابرة فتقدمتنا وسحبت البوابة الخشبية الثقيلة ودعتنا إلى الدخول. وجدنا نفسينا في قاعة كنيسة والمصلّون يشغلون المصاطب على الجانبين. وكان هناك شخص يلقي خطبة فيهم. لا بد أنه الكاهن رغم زيّه المدنيّ. ومعه شابان يرافقانه بالعزف، بين المقاطع، على كمان وآلة تشبه السنطور، مثلما يحدث في القراءات الشعرية.

هل نكون أخطأنا العنوان؟ جلسنا في الصف الأخير وأصغينا إلى موعظة بلغة لا نفهمها. ثم سكت الخطيب ووقفت امرأة ترتدي ثوبًا أسود طويلًا، تقدمت نحوه وأشارت بيديها نحو الأعلى. رفع المصلّون أعينهم إلى السقف ورفعنا أعيننا. كانت هناك ستارة حريرية رقيقة تتهدّل عاليًا فوق الرؤوس، بمربعات بيض وزرق.

همهم الحضور وصفّقوا وانحنت المرأة تحييهم. فهمنا أنها الفنانة وأن القماش المعلّق في الكنيسة هو لوحتها الوحيدة في المعرض. الكل يتأمل السقف بإعجاب. ونحن نفعل مثلهم. ننتظر أن نفهم. تركناها تشرح للحضور فحوى عملها وتردّ على التساؤلات. ثم دعتنا جميعًا إلى تناول مشروب في حديقة الكنيسة. فهمنا لغة الإشارة. الطقس رائق والشمس تتأخر في المغيب وكؤوس النبيذ الأبيض المثلج تدور فتزيل بقايا الوحشة. الخمر مفتاح الفرج.

اعتذرت بشيرة عن مجاراتي واختارت عصيرًا. وكان العازفان قد اتخذا مكانهما جانبًا وهما يقدمان تنويعات موسيقية. هل أسمع لحن «فوق النخل» أم أن خمرة كنيسة سان موريس مغشوشة؟ انتهت المعزوفة وأتبعاها بمقطوعة «ربيتك زغيرون حسن» فزالت الشكوك. هناك مؤامرة تُحاك ضدنا في دورناخ!

تقدمت، مع بشيرة، نحو الشابين وهما في استراحة بين معزوفتين. صاحب السنطور أشقر والثاني أقرب إلى السمرة. سألتهما بالإنجليزية:

- من العراق؟

- لا، نحن من هنا.

- وهذه المعزوفات؟

- بحثنا في النت عن ألحان عراقية تناسب المعرض.

- ولماذا اسمه بغداد؟

هزّا رأسيهما دونما جواب. وقالت بشيرة إن علينا أن نسأل الفنانة. انتظرنا حتى تفرغت لنا. سلّمنا عليها بالإنجليزية وقلنا إننا من بغداد. فتحت عينيها وتهلل وجهها. عانقتنا واحتفت بنا. من قال إن الأجانب باردون يفتقرون إلى العاطفة؟ التفتت صاحبة المعرض إلى الموجودين وصاحت بما معناه أن هذين السيدة والسيد من بغداد. صفّق الحضور والتمعت عينا بشيرة بالدموع. سمعتها تتمتم:

- ألله يا عراق كم أنت عظيم ومظلوم!

تشجّعت وأحطت كتفها بذراعي. يد خلف رقبتها والكأس في اليد الثانية. أشرب النبيذ الخرافيّ وعقلي ألعاب نارية تنبثق هنا وهناك. أحاول التركيز مع مايا ريدر وهي تشرح لنا فكرة عملها. تلك القماشة النازلة فوق الرؤوس هي الناموسية التي كانت تغطي أسرّة نبلاء أوروبا في العصور الوسطى. طز فيهم. أين هم من بغداد؟ يصنع النجّار السرير العريض من خشب صقيل ويثبّت له أربعة أعمدة في الزوايا. تسدل الوصيفات على الأعمدة شرشفًا من أفخر أنواع الحرير. ستارة تحجب النائمين.

استخدمت الفنانة لفظة ناموسية. قالت إنها تعلمتها من صديق عربيّ.

- باللهجة العراقية نسمّيها كُلّة.

- كوللا؟ عليَّ أن أحفظها... يجب أن أكتبها.

- ولكن، يا سيدتي، لماذا بغداد؟

- لأن السرير ذا الأعمدة يسمّى باغدخان. نلفظها بالدكان. كلمة محرّفة من اسم بغداد. منها كان يأتي الحرير.

جرعة مباغتة أدهشتني. أيقظتني. طيّرت النبيذ من رأسي.

زراعة ذاكرة

- أستاذ حاتم، هل تشعر بتأثير الحبوب فيك.

- طبعًا يا ست دلاله. كعب رجلي صار أنعم.

- وأنا ابيضّت أسناني واسودّت شيباتي.

نسخر ونحن في طريقنا إلى الجلسات اليومية. لا يمكن لأقراص مهما كانت أن تنتشلني من بئر الماضي. لو جاءوا بكل حبوب الدنيا وكبسولاتها وعقاقيرها ودسّوها في جوفي فلن أنسى. لو سقوني بعدها كل مياه الينابيع الملوّثة لما ذبل الغصن العنيد المشتول في قلبي. النسيان نعمة. والنّعم تأتي من مكان قصيّ في الأعالي. لا يقدر عليها علماء الزمان. الذاكرة ورم في الدماغ لا شفاء منه.

أكثر من يثير حنقي هذا الدكتور طريّ العود بلاسم. اخترته ذات يوم نديمًا لي. بدا لي ناضجًا وفهيمًا أمام كأس البيرة. لكن سذاجته في جلسات العلاج تقتلني. يقول ويكرر إنه مؤمن بتحقيق نتائج طيبة. يحكي لنا عن اكتشافات علمية حديثة. يبصم على

أن الذاكرة ليست دائمة. يؤكد أنها قابلة للتغيير. يمكن للعلماء الدخول في الأدمغة والتلاعب بمحتوياتها. سيقومون بحذف الذكريات المؤلمة من الرؤوس.

- هل الرأس حبة بطاطا تُحفر بالسكين لانتزاع السوس؟

- بل أكثر من ذلك. يمكن زرع ذكريات وردية بدل السوداء.

- محض خيال يا دكتور.

- خيال صار واقعًا بفضل المسح العصبي الضوئي.

هي إذًا مسألة أعصاب. أسلاك كهرباء متداخلة. يمكن فكّ اشتباكها وتغيير ارتباطاتها. تشبه شبكة العنكبوت التي نراها فوق أزقة الأحياء الشعبية. تسحب كل دار خط النور من غيرها. يتحدث بلاسم بمنتهى الثقة. يستمد قوّته من سادته العلماء. وهم في رأيي منجّمون. يتوهمون. يتخيلون. يتفلسفون. يكذبون ولو صدقوا. يحاولون تبرير أوهامهم بأن كل اختراع عظيم بدأ من فكرة خيالية. الهاتف. التلفزيون. غسالة الثياب. الحاسوب. الرجل الذاهب إلى القمر. لا حد لذكاء الآلة لأنه وليد عبقرية الذكاء البشري. تلميذها. يمكن للتلميذ أن يتفوّق على أستاذه. أما الذاكرة فإنها بئر غويط. يتسلل إليه قراصنة أميركان وكنديون وألمان. يعبثون بمياهه الوفيرة أو الضحلة. ونحن كنا من حصة السويسريين.

يخبرنا بلاسم بأن في الدول المتقدمة مختبرات للذاكرة. حلو والله. نحن في بلادنا نحتاج مختبرات للنسيان. هذا كلام واحد فنان.

أما العالم فلا يرى رؤوسنا صخورًا. إنه يهتم بما في داخلها باعتبارها كائنات حيّة. خلايا تتغيّر مع الوقت والتجارب. وما ردود أفعالنا سوى انعكاس لتجاربنا. نحزن حين نتذكر أحبابنا الغائبين ونفرح حين نستعيد أوقاتنا الحلوة. هي ما يسمّيه الدكتور بلاسم الذاكرة الديناميكية. يقول إن حقوق الاكتشاف تعود إلى عالِم هندي يشتغل في كاليفورنيا.

يخطر ببالي أن آباءنا البسطاء سبقوا الهندي في أبحاثه. ينصح المثل الشعبي المرأة الحزينة: «إذا ضاق خلقك تذكّري أيام عرسك». ونحن المدعوون إلى العرس. ضيوف الشرف. لسنا من أهل العريس ولا العروس. لكن في أوروبا مشكلة عنوانها دمج المهاجرين. هناك من يأتي ويتعلم اللغة ويدرس ويعمل. يتماهى خيطًا ملونًا ضمن النسيج العام. هؤلاء هم المهاجرون الطيبون. عرب وأفارقة وأتراك وأفغان وأكراد ذوو عريكة ليّنة. ولم نكن من هذه الفئة. ولا من الفئة المحايدة. لاحظوا في تصرفاتنا نشازًا أقلقهم.

يبدو غزوان البابليّ أكثر منّي اقتناعًا بجدوى التجربة. دحدوح دعبول صاحب نكتة يتمنى لو ملؤوا رأسه بالبهيج من الصور. ينزع الإسكاف النعل الجلدي المهترئ في حذاء الجمجمة ويركّب نعلًا من البلاستيك المقاوم للصدمات. يدعمه بزوايا معدنية. يمسح نوابغ بازل الشريط المسجّل في دماغه ويعيدون توليفه. يقومون بدور المصحّح اللغوي الذي يعيد رفع الفاعل المنصوب ويضع الهمزات المنسيّة في مواضعها. لن يبقى رأسه مخزنًا للأوامر والنواهي. مواقيت

الفروض وخشية عذاب القبر. يريد أن ينسى الخوف. تفارقه كوابيس الخدمة العسكرية ومطحنة الحروب. التنقل بين البيوت. الزوجة التي تركها هناك والأبناء الذين لم يعد يذكر عددهم.

لم يكن صاحيًا يوم حكى لي مصائبه الماضية. لا يقرب المحرمات إلا الكأس. جريرته الوحيدة التي تحتمل التأويل.

- لن يحاسبني ربّي على سيئة واحدة.

- ولا على عشر... غفور رحيم.

جاء غزوان بملء إرادته. وجئت بإرادتي. وافقت على الخضوع للتجربة ووضعت توقيعي على شروطها. لم أحصل في المقابل على أي وعد. ليست أكثر من سفرة مدفوعة الثمن. يمكن اعتبارها إجازة لتغيير الجو. رحلة استجمام إلى بلد كنت أرى جماله في الروزنامات. صيف مختلف من أصياف عمر ضاع في الخفارات والواجبات. لا واجب منها أفضى إلى بستان نخيل.

تدور علينا الممرضة بحصصنا اليومية من تلك الكبسولات الخضراء والبرتقالية. يمكنني أن أخفي القرص تحت لساني ثم أتخلص منه بعد ذهابها. حيلة تعلمناها من الأفلام. لكنني ابتلعتها كلها. رأيت الكل يبتلعها وفعلت مثلهم. وكانت المديرة كريستينا تتجسس أحيانًا لتتأكد من التزامنا بالعلاج.

نكتم سخريتنا ونسايرهم في لعبتهم. نتعايش بدون مشاجرات. المؤمن والكافر. اللاعن والملعون. لعلهم توقعوا أننا سنتعارك.

نتماسك بالأيدي منذ اللقاء الأول. نتشاتم بالأم والأخت. نتضارب بالقنادر. وسنخرج من هنا بالمعروف وبأفضل مما دخلنا. كائنات مهشمة مغلوبة على أمرها. متصالحة مع محيطها. لا تشكّل تهديدًا ولا تخالف النظام. غير أن تلك الكائنات فهمت اللعبة ولم يطاوعها التفهّم.

لسنا من مواليد البارحة. ما إن يتحرر الواحد منا من نظام القطيع حتى يعتدل بشرًا سويًّا. لا خوف هنا من عقاب. لكن الرعب ما زال يحكم تلك البلاد. نحن الكواكب المحظوظة التي أفلتت من مدارها. كل منّا انطلق نحو مصير مجهول. صواريخ تحمل رؤوسًا بذاكرات نووية.

يظنّ فطاحل بازل أنهم ينجحون في تصفير دماغي. كهربائي واير مان يُصفّر عدّاد سيارة. يغربلون مشاعري ويزيلون الشغف القديم من رأسي. إلا الشغف القديم. فهذا الرأس جعبة حاوٍ. مبادئ وغراميات وخيانات وخردة وكراكيب. أمنحكم إياه بدون ثمن ولن ينفعكم بشيء. صندوق لم أعد أملك مفتاحه. من يستطيع تفريغه وغسله وإعادته نظيفًا مكويًّا عطِرًا يستحق نوبل في الإنسانية. العلماء أنبياء العصر. الرسل الذين سيخلصون البشرية من أدرانها. لكن المخ العراقي عصيّ على الغسيل والتشحيم. سأدين لكم بعمر من الخسائر لو جددتم لي الحب القديم. خذوا كل ذاكرتي وأعطوني بشيرة.

وبشيرة تبتلع الكبسولات وتزداد جاذبية. لم تعد تشبه في

ملبسها روزا لوكسمبورغ. أتعرفين يا ست دلاله الست روزا؟ دلاله تراوح في معتقدها ولا تبدو مهتمة بغير التقشّف الروحي. وسندس تدور في المتاحف ودور السينما. غير عابئة بنا. تكتب رسائل لحبيب مجهول. وبلاسم عازم على استكمال مهمته.

أما غزوان، عدوّي الحميم، فكان يتناول الحبوب الملونة من يد الممرضة وهو يستغفر خالقه. يبتلعها ويدعو ربّه: «اللهم لا شفاء».

نفّذ ثم ناغش

جاءت لكي تنزع عنها ماضيها. تلقيه في غسالة الثياب. تحفر له قبرًا وتهيل عليه التراب. لو كانت في تلك البلاد لألقت به في تنّور البيت. ثوب الماضي بجيوبه وأردانه وحزامه القاسي الذي يخنق أنفاسها ولا يشد خصرها. لكن بشيرة تغيّرت بعد لقائها إياه. لم تعد متماسكة مثلما جاءت إلى بازل. تحوَّلت دواخلها إلى نوع من الأواني المستطرقة. تلك التي درستها في المدرسة الثانوية. يهرب الدم من شراييها ويتسلل إلى رئتيها وكبدها وعمودها الفقري. يستقرّ في كل منها في مستوى واحد. تتضرّج أعضاؤها بالحمرة. كل بقعة منها وَجنة ملساء موردة. خدّ مراهِقة. تسكر بخمرة لم تذُق قطرة منها.

لأول مرة، منذ زمن بعيد، تحب نفسها على علّاتها. والشعيرات البيض القلائل اللامعة وسط السواد لم تعد تقلقها. ولا التجعيدات الملعونة تحت العينين. تتحايل على ترهّل خديها بالابتسام. أنامل سحرية تشدّ الخطوط الهابطة. تتموّه وراء غمازتين.

على علّاتها. هكذا ينظر إليها حاتم الحاتمي وتقرأ في عينيه إعجابًا. لا تدري ما الذي يغريه فيها ولا ما يغريها فيه. لعلّها قامته التي تشيع في نفسها إحساسًا بالأمان. أو لهجته الريفية. أهل الريف والقرى أكثر شهامة من المدينيين. فكرة موهومة تريحها. ترى فيه رجلًا يستطيع أن يأخذها تحت حمايته. يطويها مثل جريدة تحت إبطه. يعفيها من التفكير في القادم من السنوات. من القلق الطبيعيّ لمن نأى واغترب. سحر يقع عليها من حيث لم تحتسب. كلما بزغ هلال نظرت إلى فيروز خاتمها ونفخت في عبّها. تطلب مرادًا يربكها وتخجل منه.

ترتاح إليه وتخشاه. شيء في نظراته ينبئها بأنه يسمع المسكوت في داخلها. يكشف عن وجهها نقابًا غير مرئي. يبادلها الحديث وينتقي كلماته انتقاءً. يختار لها ما يرضي غرورها. غرور أي امرأة. عباراته مهذّبة ونظراته بين بين. يقول لها يا خانم فتتعزز كبرياؤها. لا تدري ما الذي يتوارى وراء التفخيم. لم يبدر منه ما يشي بأنه يعرف سرّها لكنها تشعر بأنه يعرف. إحساسها لا يمكن أن يخونها. مثلما لا يمكن لأذنيها نسيان ذلك الصوت. اللهجة الجنوبية واللسان الذي يراوح بين القاف وبين الغين.

«نفّذ ثم ناغش»!

فعل أمر بقي راكدًا في ذاكرتها أعوامًا. ثلاث كلمات خلّصتها من مصير أسود. تلذّذ المحقّق وهو يبلغها بأن قرارًا صدر بإعدامها. وهي ضائعة لا تعرف من الذي حاكمها ومن حكم عليها. قال

لها إن الموت سهل بعد أشكال العذاب. والعار جزاء رفيقاتها قبل الموت وسيكون جزاءها. لم يسمّهن رفيقات ولا استخدم كلمة اغتصاب. للفصحى اعتبارها الأرفع من جلافته. يستخدم لغة مبتذلة محشوّة بمفردات سوقيّة. يعيد التهديد بأن تلك الليلة ليلتها. يتفنن في شتمها والتفوّه بالكلمات النابية. «القحاب من جماعتك تستاهلن الذبح».

عيناها معصوبتان وأذناها تبصران صوته. السمع حاسّتها الأنقى. ترى الفحيح القبيح والخنّة الباعثة على الغثيان. وهي ليست جبانة. عرفت مهاوي نشاطها الممنوع واستعدت لما هو أفدح. الضرب وقلع الأظافر والانتهاك. تركت عقلها ينفصل عن واقعها. يستحضر ملامح من تحبّ. الحاجبان الكثيفان والوجه المنسيّ بدون حلاقة. يقبّلها بشراهة وتعود من عنده ببشرة ملتهبة. سيفضحها احتكاك جلدها بشعيرات لحيته النابتة. لا تعرف كيف أصبحت عشيقته. تفاصيل قفزت فوقها. يكفيها أنها حبيبته. لا فرق بين الصفتين. بل فرق كبير. تنتظر الحبيبة مستقبلًا وليس للعشيقة سوى الهجران.

كان الأول في حياتها. رفيقها في التنظيم. فارسها. وسامته في ذكائه وقوة شخصيته. دائم الحديث عن إيمانه بحرية الشعوب. تغامزت حوله البنات واختارها من بينهن. أسبغ عليها شرف أن تكون الأقرب إليه. أخبرها بأن الحياة قصيرة وهم منذورون للنضال. المشنقة تنتظر رقابهم. سيذيقها عسل الدنيا قبل فوات

الأوان. آمنت به واستسلمت لكل ما يطلب. تنقل الكتب. تخبئ المنشورات. تتصل بمن يكون الاتصال به شبهة مُهلِكة. وحين ينفرد بها في تلك الشقّة الفقيرة يتحولان إلى مجنونين برغبات لا ترتوي.

تقوم وتغسل الشرشف المبقع. تدعك حوض المغسلة. القذارة زينة الفقراء والاستنكاف صفة برجوازية. لم يخاطبها بصفة رفيقة ولا ترك لها مجالًا للتمنّع. مسيطر متسلل ذو حنكة. أخطبوط أملس ساحر وهي خام. تفهم العمل السريّ على أنه كفاح مسلّح في مزارع كوبا وغابات كولومبيا. لا بد أنه يشتاق إليها. يحترق من القلق. يوجعها قلقه أكثر من خوفها على نفسها. يداها مربوطتان وراء ظهرها وتنميل يحرق عضلات كتفيها. تستعيد ملامحه وتستقوي بنشوة في صدرها. ستكبر في عينيه بعد أن قبضوا عليها.

وقفت سيارة «رينو» عند الباب وسحبوها إلى داخلها مثل ذبيحة. لم يجرؤ أحد على الاقتراب. الكل يخشى الغِربان. الشوارب الحالكة والنظرات الكاوية. مسدساتهم في خواصرهم وليسوا شرطة ولا عسكريين. سريعو الحركة مثل أفاعي المستنقعات. نحيلون بقمصان رمادية وسراويل سود. تنشقّ عنهم الأرض في لحظة.

سيهينونها وستكبر في عينيه. مناضلة أسطورية تمضي إلى حتفها. تمنّت لو كان لديها ذلك الخاتم الذي يخبئ سمًّا تحت لؤلؤته. تبتلع كبسولة الجواسيس في اللحظة الحرجة. تنتحر حافظة كرامتها.

سيسطع ذِكرها في الحلقات السريّة. تصبح رمزًا وتُسمَّى المولودات باسمها. بشرى. بشائر. بشيرة. تمنّت مطرًا يغسل جسدها الذي لم يعرف الماء منذ أيام. ستُلقى جثتها الشاحبة المعذبة في حقل من الزنبق. يعتبرها الحزب شهيدة تذهب إلى فردوس أخضر. تنضمّ إلى قافلة شهداء وطن سيصبح حرًّا، لا محالة، وسعيدًا. محض هلوسات وتهيؤات.

ثم سمعت الباب يفتح ويدخل الصوت الآخر. أدركت وهي معصوبة العينين أن الأصوات مقامات. الأول ينحني للثاني. يأتمر بأمره. لم تشاهده وهو يومئ برأسه نحو الباب، طالبًا من المحقق أن يغادر الغرفة. لكنها أحسّت بالإيماءة.

- اتركها لي.

- سيدي لم أكمل الاستجواب.

- أنا سأتصرف.

- لكن سيدي...

- نفّذ ثم ناغش!

الصوت الثاني ابن منطقة جنوبية. عقلها حاضر لتفسير الإشارات. تسجيل وقائع ساعاتها الأخيرة. سمعت لهجته الريفية وتمنّت لو كانت أخلاقه كذلك. لعله حافظ على نقائه من تلوّث العاصمة. كلهم أصنام بلا مشاعر. يريدون القضاء على جماعتها وإبادتهم. ترعبهم المبادئ التي سبقت فذلكاتهم ولا يجيدون مواجهة

الفكرة بالفكرة. يصطادون رفاقها ورفيقاتها من البيوت والشوارع وصفوف الجامعة. سلاحهم الكي بالسجائر. التعليق بمراوح السقف. إخصاء الرجال واغتصاب النساء.

لم تمتدّ إليها يده. لم يوجّه إليها كلمة. عذّبها بصمته لوقت لا تدركه. نصف ساعة. ربما ساعة. الزمن سائل مبهم في الغرف التي لا يدخلها ضوء الشمس. لا تدري هل بقي موجودًا أم تركها وحيدة. لم تسمع صوت الباب. لكن هناك من يتنفّس في الغرفة. يقاسمها الهواء النتن في وحدتها ووحشتها. لعله يأخذ وقته في اختيار أسلوب التعامل معها. يفكّر بالطريقة الأبشع لإجبارها على البوح بأسمائهم. عناوينهم. مراتبهم. ارتباطاتهم. وهي تجهل مدى تحمّلها وصمودها أمام الألم الجسدي. لم تمرّ بالاختبار المروّع. تخشى أن تنهار وتخون الرفاق والرفيقات. تستمدّ شجاعة مهزوزة من روايات وأشعار حفظتها. من الأناشيد والأفلام وقصة جميلة بوحيرد. ضربها المحقق الأول وصبرت. تعرف أن الضرب وسيلة قديمة. دغدغة. هناك أساليب مستوردة من ألمانيا وفرنسا. من عالم متطور ومتحضّر. يا أوغاد العالم اتحدوا!

اقترب منها الصوت الثاني فتراجعت. أرادت سحب تنورتها على ركبتيها لكن يديها مربوطتان. توقّعت لطمة من مكان ما. دسّت رأسها في صدرها وكوّرت ظهرها. هرّة تستعد للوثوب. لكنه لم يستخدم يده. طرح عليها عباءة خشنة. دفعها في ممرات ونزل بها أدراجًا. سمعت لغطًا وصرخات وشتائم وأصوات أقفال تفتح. ثم

لفحت وجهها نسمة نقية. اقتادها عمياء نحو سيارة. حطّت كفّ ثقيلة على كتفها لكي تركب. سارت السيارة مسافة ليست بعيدة ولم تسمع صوتًا لراكب أو سائق. أنزلها بدون كلمة. تركها كيسًا أسود على الطريق. انكمشت قابعة في مكانها ودسّت رأسها بين كتفيها. انتظرت رصاصة الإعدام. طال انتظارها ومضت السيارة. سمعت همهمة حولها. رفعت العصبة العريضة عن عينيها وأعماها الضوء الشحيح لعمود النور. هذا شارعهم. ذاك باب بيتهم. نهضت مضعضعة العظام وسارت لتقع بعد خطوات في حضن أمها.

ميجروس

لولا الدبيب القديم النابض تحت جلدي لكانت أيامي رتيبة في بازل. أرصد تحولات من حولي ويرصدونني. لا بد أنهم يستهزئون بالطود الذي يطارد السيدة المحترمة. مراهق متأخر حمل معه من بلاده ألوانًا من الكبت والجوع. لا تنقضي أيام الأسبوع إذا لم يراقب كلٌّ منا لوثة غيره ويتغاضى عن لوثته. نبتكر طرائقنا الخاصة لتلوين ساعات الفراغ. نقرر أن نحتفل بكريستينا التي بلغت سن التقاعد. ستتركنا مديرة الدار وتذهب لترتاح وتعيش حياتها. تسافر حول العالم. اتفقنا أن ندعوها إلى عشاء عراقي. نشترك في الطبخ كلٌّ حسب خبراته. برياني وكباب طاوة ودولمة. رفعت صديقتنا الآشورية سبابتها النحيلة سيفًا في وجوهنا واختارت حصتها:

- دولمة دلاله أم الدوالم!

- والبرياني؟

- دبرّوه أنتم.

كان على بشيرة أن تشتري احتياجات الوليمة. تساعدها ابنتها في الطبخ. الفاكهة ولوازم حلاوة الجزر متروكة للبابلي. تغامزوا وتركوا لي مهمة الاعتناء بالمشروبات. مَن غيري لها؟ سندعو إلى العشاء جميع المقيمين معنا في الدار: الرسامة اليابانية والمصور الهندي والطالبين الإسكتلنديين اللذين يحضران ورشة مسرحية. نسكن متجاورين معهم في مبنى واحد من دون أن نختلط بهم. نكتفي بالتحية في المصعد أو المطعم. يحدث أن يطرق راج الهندي بابي ويطلب بطارية للمُسجّل أو أكياسًا للنفايات. تلومنا كريستينا لأننا انعزاليون. لا تفهم أن حاجز اللغة يصيبنا بالحرج. تعليم اللغات ضعيف في بلادنا. مع هذا نبادر وندعو جيراننا إلى حفل وداعها. يقول بلاسم:

- تحتاج الست بشيرة إلى من يحمل معها المشتريات.

- سأكون حمّال الخانم وأنا الممنون.

سمعتني ولمحت ابتسامة على وجهها. تنفرد ملامحها فأنتعش. تقطب ما بين حاجبيها فتغيب الشمس وتُعتم دنياي. اتفقنا أن نذهب لشراء اللوازم صباح السبت ونقيم حفلتنا في المساء نفسه. موعدي معها عند التاسعة في مدخل المبنى. اغتسلت منذ السادسة وارتديت زيًّا رياضيًّا. نزلت إلى البوابة الأمامية مقوّس الساعدين مثل بطل كمال جسمانيّ. زاد من انشراحي أن أراها تحضر بدون ابنتها. مرّة أخرى تتيح فرصة لانفرادي بها. استقبلتها عيناي وهي آتية من باب السكن. تقطع الساحة نحوي بخطوات واثقة ومعها

كيس التسوّق. منعت نفسي من أن أهرع إلى لقائها. رأيت أمامي البنت التي كانت تسير في درابين بغداد وأتبعها من بعيد. ماذا تعني عشرون عامًا في عرف الزمن؟

غادرنا الفسحة الأسمنتية الكئيبة وانحرفنا يسارًا على الرصيف العريض في طريقنا إلى «ميجروس». في كل بلدة سويسرية هناك «ميجروس». أسواق كبيرة فيها كل ما يحتاجه المرء. لحوم. أسماك. معلبات. منظفات. ملابس. أدوات خياطة وبستنة. حقائب سفر. بيننا وبين المتجر عشر دقائق لا أكثر. تمنيتها العمر كله أو ما تبقى منه. مشيت متمهلًا أساير خطواتها. كانت تتنفس عميقًا مثل الخارج من كهف. تتمرد خصلات شعرها على الشريط الذي يحبسها. تعيش فوضاها. يعلو صدرها ويهبط ومعه أنفاسي. تنسحب المباني من المشهد وتذوب في النهر القريب. لا يبقى سوى لوحة مائية لرجل وامرأة. تخفت أصوات السيارات من حولي. صممٌ لطيفٌ أصابني وأنا مسرور به. لا أحب التشويش ولا حتى الموسيقى التصويرية. لم يبقَ من الموجودات حولنا سوى نسمات صباحية عذبة. كأننا نتمشى على كورنيش دجلة.

تركتني أدفع العربة وانشغلتْ بانتقاء الخضراوات. أتفرج عليها من دون أن تطرف عيناي. لا تشبعان من تفاصيلها. كل ما فيها فنّان. البطاطا تستعطفها أن تنتخبها والبصل الأخضر يصبح في كفّها طاقة نرجس. كفّها الصغيرة بخواتمها الثلاثة المتجاورة مثل تمائم الفيروز. انتقلنا إلى قسم اللحوم وأخذنا حاجتنا. الضلوع

للدولمة وأفخاذ الدجاج للبرياني واللحم المفروم للكباب. أشارت إلى قسم المشروبات فاقترحت عليها أن أعود بعد الغداء لشراء ما نحتاج منها. سيكون الحِمل ثقيلًا هذه المرّة على سور الصين. وقفنا في الدور أمام المحاسبة. خمّنت المرأة السمينة أننا أجنبيان. حيّتنا بالألمانية وابتسمت. دفعت الحساب واحتفظت بشيرة بالفاتورة. رجل وامرأته في مشهد تسوّق روتينيّ.

خططت ذلك النهار لأن أفتح معها حديثًا يخصّنا. ينزع الشوكة التي في أسفل القدم. جئنا من بلد واحد. أرض تغدق النعم على أهلها مثلما توزِّع الويلات. قد لا تعدل في الأنصبة لكنها لا تستثني أحدًا. هجرناها وتشتتنا في البلاد. تركنا بيوتنا ومكتباتنا. افترقنا عن أهلنا ومعارفنا. تعبنا. اشتقنا. كافحنا. بكينا. مرضنا. اعتصرنا سماعات الهاتف مثل مجاذيب الأضرحة. فهل من ملامة إذا بحثت عن عشّ يلملم أجزائي؟

في الطابق العلوي من «ميجروس» استراحة ومقهى. دفعت العربة المحملة بالأكياس إلى المصعد الفسيح. الكراسي والمناضد متشابهة في المقهى. خشب أصفر باستثناء كرسيين مخمليين قرب النافذة. كأنهما كانا ينتظراننا. المنظر يطل على الطريق العام ومن ورائه الشجيرات والنهر. وأنا متوهّج مثل نار كركوك. تتقّد شهيتي الأبدية للكلام. أخبرتها عن أحوالي ووحدتي. نشأتي الريفية وأول زيارة لي إلى العاصمة وأنا صبي.

كنا في عزّ تموز والمدينة الكبيرة فرن يشوي الجلود. تخترق

سخونته الرؤوس. ورغم الحرارة والزحام والضجيج انبهرتُ ببغداد. كنا نسمّيها الولاية. نزلت في بيت عمّتي التي المتزوجة بعقيد في الجيش. بيتهم من الطابوق الأصفر وحديقتهم فردوس من شجر وورد. تغديت على مائدة مغطاة بمفرش سماوي وأكلت المكرونة للمرة الأولى. طليقتي كانت تسمّيها سباكيتّي. أعجبني شفط الحبال الرفيعة المغموسة بمرق اللحم المفروم. وفي الولاية تذوقت عصير المشمش وأنا مذهول. طعمه من خلاصة شراب الملائكة.

تصغي بشيرة لثرثرتي وتتطلع من الشباك تاركة نفسها لأفكارها. كأنها تخشى أن يطبّ علينا أحد يعرفها. تحاذر الالتفات نحوي هروبًا لا انشغالًا. تصبر عيناي على عينيها. النظرات الناطقة آتية لا ريب. سأشرح لها شيئًا مما في صدري وستفهمني. لا بد أن تفهمني. أحكي لها عن غربتي مع طليقتي. أبنائي الذين بنى كل منهم حياته في قارة بعيدة. كبر الأولاد ولم أكبر. النسغ ما زال يسري في أعضائي. فرشت لي عمّتي لأرقد في غرفة الخطّار، أمام فوهة المبردة. أعطتني دشداشة زرقاء ومنشفة نظيفة. تمنيت لو أقضي عمري مرتديًا تلك الدشداشة التي يفوح منها التايد، راقدًا في النسمات التي تحيي العظام وهي رميم. كنت مثل المعيدي الذي يسمع عن برودة مصيف سرسنك في الشمال من دون أن يعي لطافة ليالي الجبل. هل يكون سرسنك أحلى من بيت عمّتي؟

ستضحك بشيرة حين أكشف لها عن أنني عندما شببت اشتريت مشطًا للشاربين. كان دقيقًا صغيرًا مثل أمشاط الدمى.

استعجلت لكي ينمو الشعر في وجهي. أحلق كل صباح وأنا أغني «قل للمليحة...» حين أكون رائقًا. أمَّا إذا عاكستني الظروف فإن صوتي كان يرتفع بموّال طويل ينتهي بتسليم «مِعلِّم على الصدعات قلبي». ستغّص في الضحك حين تعرف أن لقبي بين المعارف هو سور الصين. قامتي هي السبب. وسأكون مستعدًّا لأن أقرّ بين يديها بكل سفالاتي. ستتفاجأ وتتعجب. وقد تبكي وهي تتذكّر ما فات وأمنحها منديلي. ستلمس غلوائي لكي أاخذ حقّي من دنياي. فرصتي المتأخرة التي ستكون هي سلطانتها.

سنبحث بعد ذلك الخطوات العملية لاجتماع الشمل. «تجونا لو نجيكم»؟ لن نموت يا خانم وحيدين غريبين في البلاد الغريبة.

استدارت بكامل وجهها نحوي أخيرًا. تأملتني بأسًى. قالت:

- وماذا بعد يا جاري القديم... حضرة الضابط؟

مصانع البونبون

استراحة الظهيرة فرصتي للتعرف على المدينة. ساعة للغداء وثلاث للجولات الحرة. طلّقت نوم القيلولة منذ حلولي هنا. كل غفوة تسرق مني اكتشافًا وصيدًا غير متوقع. كنت محتاجًا إلى المشي والتفكير. أدير في رأسي غفلتي عمَّا جرى بيننا. لا أصدّق أن بشيرة عرفتني منذ البداية. ذاكرة عجيبة فرزت نبرات صوتي ولهجتي. وكل تلك الحبوب والعقاقير، ألم تفعل فعلها؟

الشمس بخيلة وقد يفاجئني الرذاذ في أي لحظة. لا أحد يخرج بدون مظلّة. وسواء سمّيتها مظلّة أو مطريّة أو شمسيّة فإنها عصاي التي ترافقني حيثما ذهبت. في الجو نسمات باردة رغم أننا في عز الصيف. صيفهم مثل ربيعنا. وصيفنا جهنم.

نزلت إلى الطريق العام ولم أأخذ الترام في المحطة القريبة. سرت لعشرين دقيقة ثم ركبت باصًا إلى الجانب الآخر من النهر. تفكيري لا يوصلني إلى نتيجة. سأنزل إلى المدينة القديمة وأدخن النرجيلة في مقهى دلنّي عليه غزوان. «حسبة تجيبني وحسبة تودّيني». ترافقني

أغنية هيفاء حسين فأسهو وأجد نفسي في غير المكان الذي أقصده. وقفت وقرعت الجرس طالبًا النزول في الموقف التالي لكن السائق لم يتوقف.

- فيربوتن.

- لا أفهم الألمانية.

بالإنجليزية تعيد السيدة الجالسة بجواري كلامها. نحن في منطقة مصانع الدواء. المحطات مقفلة هنا خلال أيام الأسبوع. لا يمكن لأيٍّ كان أن يسير في المنطقة. يمكنني العودة في الويك إند.

وسور الصين، في عرفهم، «أيًّا كان». يخشون جواسيس التكنولوجيا ولصوص المخترعات. سيّاح من الصين واليابان وألمانيا وبولندا. لا تغريهم متاجر الذهب والألماس. متخصصون في جمع معلومات عن علاجات أمراض مستعصية. الإيدز يشغل العالم ويحصد النساء والرجال. مرضى السرطانات ينتظرون المعجزة. الصلع يريدون استنبات خصلاتهم التي فقدوها. المُشعرات يتمنين الخلاص من مشكلتهن. البُدُن يبحثون عن حبّة الرشاقة. كلهم يقصد بازل ليغنّي على ليلاه. دواء الصلع وحده يجعل مخترعه مليونيرًا في أيام.

استطلعت من النافذة فوجدت أننا نمرّ بمحاذاة الأبراج الشاهقة التي كنت أراها، عبر النهر، من بعيد. المصانع التي أثارت فضولي منذ حللت في بازل. تمنيت زيارتها واقترحت ذلك على

كريستينا. أن تنظّم لنا جولة في واحد منها. لكنها استقبلت اقتراحي بنظرة ارتياب.

- نحن يا سيدتي نتعالج بأدوية هذه المصانع.

- أدويتنا هي أسلحتنا. هل تسمحون للغرباء بزيارة مفاعلكم النووي؟

أويلي! مفاعلنا النووي مرّة واحدة؟ مالئ الدنيا وشاغل الناس. أشعرتني المديرة بأنني أتحرك في المنطقة الحرام. تعرف عن مفاعلنا ولا تعرف عنادي. بحثت في دليل الهاتف وأدرت رقم شركة لاروش. جاءني صوت ناعم:

- أتتحدثين الإنجليزية، بليز؟

- هاو كان آي هيلب؟

- أنا زائر من العراق. أريد موعدًا للاطلاع على مصنعكم.

- عفوًا... مصنعنا ليس مزارًا سياحيًّا.

- لكنني أتعالج بعقار منكم؟

- لم أفهم.

- أنا من فئران تجاربكم.

لا أدري إن كنت قد استخدمت المفردات الصحيحة. انتظرت جوابًا لكن الخط انقفل في وجهي. لطمة لا تتماشى مع تهذيب السويسريين. تستأهل البهدلة يا سور الصين. فشلت في المحاولة

وها أنا أمرّ بالحافلة تحت نوافذهم. ممنوع حتى من النزول عند رصيفهم. عاشق غاضب خائب يقرأ شعرًا تحت شرفة الحبيبة. أجلس في مقهى يرأف بأمثالي من الغرباء. لا يغلق بابه دونهم. أطلب شيشة وزجاجة بيرة.

- عفوًا أستاذ. لا نقدم الكحول.

- شاي إذًا... خمرة المؤمنين.

تعرفّت بشيرة عليَّ. جارها القديم. الحزبي البارز. ضابط الأمن الطويل العريض الذي كان يراقبها. كيف تصوّرتُ أنها سهت عني؟ عدنا في ذلك اليوم صامتين من جولة التسوّق. ذهبنا صديقين ورجعنا غريبين. لم نتبادل الكلام. أحمل أكياس الخضراوات والفواكه والدجاج وأنا ساكت. نضع حاجياتنا في المطبخ الكبير وينصرف كل واحد إلى غرفته.

استمر تفادي الأعين ليومين تاليين. جمعنا حفل كريستينا ولم نتحدث. نحضر جلسات العلاج النفسي وكلٌّ في وادٍ. أسمعهم يتناقشون وأذني تترقب صوتها. تبخل به عليَّ وتبقى ساكتة. يوجعني صمتها. لاحظ غزوان تباعدنا وغمزني غمزة الخبيث. التشفّي بعد الحسد. لازمني الأرق وما عاد يمكنني الصبر. سأفتح معها الموضوع الشائك. أطرح عني ترددي وتنزع خجلها. نتصارح ونتوادّ أو نتعارك ونغادر بازل قطبين متنافرين. ليس في العمر متّسع يا بشيرة لخيبة أخرى.

عدت إلى دار السكن وأنا مخمور بحسرتي. مضيت إلى المكتبة مباشرة وبحثت عن معلوات حول مصانع الأدوية. هالني ما فهمته وخفت مما لم أفهمه. استدعيت مترجمتي المخلصة الست دلاله. رغم تعبها نزلت المرأة الطيبة لنجدتي. قرأت لي ما كنت أطلبه وأكثر. تأكدتُ من أن بازل هي عاصمة الدواء في العالم. أربعون شركة تحت مُسمّى علوم الحياة. مئة وخمسة وثلاثون ألف عامل يأكلون خبزهم من صناعة العقاقير، عصب اقتصاد البلد. تدور في فلكها أموال تقترب من ثمانين مليار دولار كل عام.

- أمعقول هذا يا ست دلاله؟

- وما هو اللامعقول؟

- كل هذه المليارات...

- تبدو سكران يا سيد حاتم.

- لا والله... الأرقام دوّختني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اليابانية

- ماذا كنت تفعل عندها؟

- كنت على موعد مع الحسن بن الهيثم.

أبتسم وهي متوترة. فاجأني فضولها. كأنّ بشيرة أرادت بسؤالها أن تكسر الجفوة بيننا. هناك من العبارات ما ينزل عليك بردًا وثلجًا وسلامًا. أقيم في جانب من الطابق الأول وهي تقيم في الجانب الثاني. بين الجناحين حاجز زجاجيّ. تحرص على رشاقتها ولا تأخذ المصعد. تهبط السلالم مستقيمة الظهر مرفوعة الرأس. ملكة ذاهبة إلى صالة العرش. لا بد أنها رأتني من خلال الزجاج خارجًا من غرفة اليابانية. بابها مقابل بابي.

جاءتني جارتي صباح السبت ودعتني إلى شرب الشاي في شقتها. واحدة من الشقق ذوات النوافذ الواسعة المخصصة للفنانين التشكيليين. لديها زاوية للنوم وورشة فسيحة للعمل. على الباب مربع أحمر عليه اسمها بأحرف بيضاء: آيا إيهامورا. طالعتني في

صدر المرسم صورة تخطيطية لرجل ملتحٍ يرتدي عمامة. ممثل خارج من مسلسل تاريخي عربي. لم أتعرّف عليه وأميّز ملامحه. أمثاله كثر في كتب التاريخ. لكن جارتي الصغيرة ضمّت كفّيها وانحنت أمام الصورة على طريقة اليابانيين في التحية.

- سلّم على جدّك ابن الهيثم!

- تعرفين ابن الهيثم يا ملعونة؟

والملعونة قلتها بالعربية. لم يحضرني ما يقابلها بالإنجليزية. تدور جارتي بين كراكيب شقّتها. نحيلة كقلم رصاص. رقيقة كريشة. تقول لي إنها فنانة بَصَريّة. لا أفهم ما تعني. كنت أعرف أن الفنانين التشكيليين يرسمون اللوحات أو ينحتون التماثيل. لكن هذه اليابانية تتكلم بتمهل. تتأتئ وتشهق وتأخذ وقتها في اختيار العبارات. تشرح لي اشتغالاتها على كشوفات ابن الهيثم. استفادت من علومه في تصميم أعمال تعتمد على انعكاسات العدسات المتقابلة.

في سقف الورشة مستطيل معدني تتدلى منه حبال قطنية سميكة. على الجدران مرايا متعاكسة. في الوسط سلّم خشبي تصعد عليه آيا إيمامورا وتهبط بخفة قطّة. تعدّل من وضع اللوحة المعدنية واتجاه المرايا. تشدّ حبلًا وترخي آخر. تدعوني إلى تأمل تشكيل تسمّيه تجهيزًا. وما زلت لا أفهم. لا بد أنها لغة الحداثة. وها أنت يا أبا الحواتم الشاهد الأول على ولادة هذا العمل. تتابع مخاض جارتك الصغيرة وهي تتلوى. تطلق. تتمخّض. تنتظر أن يرى تجهيزها النور.

أتأمل ولا أستوعب. أمامي كائن غريب. تكوين يحتاج مخًّا يابانيًّا لكي يتشكّل. لا هو لوحة ولا هو منحوتة. يمكن لي أن أقف قبالته، أو تحته. أدير بصري إلى أعلى. يمينًا ويسارًا. أحاول التفاعل مع ما أرى أو أن أتمتع بجمال خفيّ غير معلن.

سكتُّ ولم أتكلم. توقّعت من هذه الإقامة أنواعًا من الدهشة. حمائم كثيرة يمكن أن تطلع من القبعات السويسرية. أمَّا أن ألتقي الحسن بن الهيثم في بازل فذاك أرنب يقفز من جعبة ساحر بارع. كانت هناك، على منضدة في الورشة، مجلدات وكتب عنه بالألمانية والإنجليزيّة وبلغة الفنانة التي تشبه تطريزات مبهمة.

تذهب إلى الغلّاية وتعد لنا شايًا محايدًا بلون ماء المطر. تحدثني عن ابن الهيثم بهيام. شاي آيا وريقات جافة بطعم الورد المعتّق وصوتها ابتهال عاشقات محرومات. تلتمع عيناها المسحوبتان وهي تخبرني بأنها تدخّر نقودًا لكي تذهب إلى البصرة، المدينة التي ولد فيها محبوبها. تخطّط أيضًا لزيارة الأحواز ومصر، حيث عاش، والشام التي درس فيها الطب.

- مستر هاتمي، هل تعرف البصرة؟

- أوف كورس مس إيماموراً. ولدتُ هناك.

كذبة بيضاء لن تقتل إنسانًا. لا بأس منها لكي تفرح جارتي. لو كنت في أيام شقاوتي لما تركت فاختة مثلها تفلت مني. يحزّ في نفسي أن أموت من دون أن أجرّب الآسيويات. رأيتهن في الحي الصيني

واشتهيت بياضهن. دُمًى من الشمع. أجفان مغمضة على النشوة حتى وهي مفتوحة. كذب عليّ صديق من أيام المراهقة وأوهمني أن زهرتهن تختبئ بين أفخاذهن بالعرض، لا بالطول مثل باقي نساء العالمين. لكن آيا في نصف عمري وأصغر من أولادي. تعيش طقسها وأعيش في طقس آخر. تلفّني دوامة بشيرة حسّون وتعميني عمَّا عداها.

فهمت منها أنها تقيم في ألمانيا. لديها منحة من معهد الفنون في جامعة برلين. تشتغل مصوّرة و«ميكست ميديا». عدت إلى شقتي وبحثت عن المعنى. فهمت أنه الوسائط الخليطة. وحتى هذه لم أفهمها. سبق لكريستينا أن شجعتنا على زيارة مشغل آيا. قالت إنها فنانة بَصَرية معروفة عالميًّا. تحلّل صور الجسد الأنثوي عبر العصور. تأخذ التشكيلات القديمة من تماثيل المتاحف والجداريات وتضعها في سياقات حديثة. تتبع علم الآثار الانعكاسي. وهذا أيضًا لم أفهمه. لم أعد شابًّا يلقطها على الطاير. «المورد» رفيقي المخلص هنا. لكن قاموسي يترجم وهو سكران.

ضبطتني بشيرة أخرج من شقّة اليابانية. سؤالها يشعرني بالزهو وغيرتها تعجبني. أحبها وأناور ولا أضمن فوزي بمشاعرها. أتكون الغيرة هي البرهان؟ أفكّر في أن أحكي لها عن مرايا ابن الهيثم ولن تصدّق كلمة من هذياني. سأدعوها إلى رؤية ما أنجزته آيا إيمامورا ولن تهدأ نفسها. أواصل حيلة الكلمات لكي أبقيها في المنطقة الرمادية. لا شكّ ولا يقين. لن تتأكد أنني ضحية هواها منذ

أن فهمت الهوى. عشت الحب مؤجلًا دون إنجاز، اختبارًا شفهيًّا ينتظر الامتحان التحريريَّ. غرام ملتبس مثل التجهيز الذي تشتغل عليه آيا. يحتاج هَوايَ، كي يكتمل، سحبة من حبلٍ هابط من السقف وتعديلًا لمرآة عاكسة. هل يكون العمر سخيًّا في الأواخر؟

كنت محتاجًا إلى الاختلاء بنفسي. نزلت إلى الطريق العام ومشيت لوقت غير محسوب. بلغت حافة الراين. إذا صدّقنا كريستينا فإنه نهر ينبع من الجنة. هكذا جاء في الأسطورة. تعكّرت مياهه، ذات يوم، بسبب حريق هائل شبّ في أحد المصانع. تلوث هواء بازل كلها واستغرقت تنقيته سنوات. أسحب نفسًا طويلًا متقطعًا وأزفر خلاصة حيرتي. أشمّ الدخان في حلقي. أتفرّج على طفلين يقفزان بحبور في النهر. يسبحان تحت نظر امرأة ذات شعر أشيب. قد تكون الجدّة أو المربيّة. وجودها صمام أمان. ليس في الكون ما هو أحلى من الأمان. تمنيت لو أملك جرأة السباحة في الراين مع السابحين القلائل. الجو دافئ بدون سخونة وأنا ما زلت أرتدي معطف المطر. لا أخرج بدونه. طقس متقلب لا يؤمَن له. تكذب النشرات الجويّة ولو صدقتْ.

في أصياف بغداد، تلك المتوهّجة، كنت أخرج مع صحبي في الأماسي. نغسل رؤوسنا بعد القيلولة بحنفيات مثلومة الحواف، مكانها في البيوت تحت الدرج. نمشّط شعورنا الغزيرة جانبًا على طريقة مؤيد البدري. نرتدي سراويل فاتحة وقمصانًا خفيفة. يفوح منّا عطر «بروت». نقتنيه من أوروزدي ونمسح به سوالفنا

وأعناقنا. نسهر في الحانات المكشوفة على دجلة. نشرب بيرة «فريدة» ونحلم أحلام معتوهين. تصوّرنا أننا فاتحو الأندلس. القدس قريبة وسنشطب الحدود بين بطاح الوطن الأكبر.

لم نكن قد تلوّثنا بعد. ثم تتالت عليّ الخيبات. في الحب والزواج والأبوة وفي النضال.

كركوزات

تغيّر غزوان حتى ما عدنا نعرفه. لعبت الحبوب برأسه فصار رزينًا متجهمًا مثل حارس سجن. ثقيلًا مثل فضلات الحدّاد. فقد صديقي ضحكته، أجمل ما فيه. صار نصبًا نحته فنان متملق لزعيم فاسد. يجلس معنا ولا يشاركنا الحديث. نلّح عليه فيبدأ بإلقاء كلماته وكأنه المدير ونحن السكرتيرة والسائق والفرّاش وعاملة النظافة. حتى لهجته تغيرت. يلفظ الكلمات مثل مستشرق تعلّم لغتنا في الجامعة. أسأل بلاسم:

- هل سنتحوّل إلى كركوزات؟

- غزوان هو الأكثر هشاشة بينكم.

قلقت دلاله على أحوال البابليّ. خشينا كلنا أن نصبح مثله. مخاوف داخلية زعزعت اجتماعاتنا. تعكرت هناءة صيفنا القصير في بازل. كنا نتلقى الحبوب الملونة وننتظر مفاعيلها. تصورناها معجزة طبيّة تنتشلنا من الخدر وجمود الماضي. لكننا، بدون

اتفاق، بدأنا نتحايل لكيلا نبتلعها. أجمع البونبونات الملونة في راحة كفي وأتظاهر برميها في جوفي. أشرب كأس الماء وأمسح فمي وأبتسم.

أخذونا ذات نهار غائم إلى مركز طبيّ بعيد. عملوا لكل منّا سلسلة من الأشعات والصور. أجهزة ضخمة تطلق نقراتها على الأعصاب. ندخلها شبه عراة ممددين على ظهورنا. تدور الكاميرات حولنا دورة الأفلاك. نواعير ونحن حمير الساقية. رؤوسنا بطيخات مكشوفة لمناظيرهم. يطبطبون عليها قبل أن يشقّوها على السكّين. يسمعون الرنين العائد منها. سحرة شقر بأعين زرق يقلبوننا على بطاناتنا. عرّافات وفتّاحو فال يملكون قراءة ماضينا والآتي من أيامنا.

يزعجني صوت الآلة فتعطيني الممرضة سماعات واقية. موسيقى تخفف النقر ولا تلغيه. توقّعتُ من إقامتي هنا أن تخلصني من غلوائي. انحيازاتي. شدّة اندفاعي. سأعود مُعافًى من الشعارات المخزونة في طيّات لساني. أترك التعصب الذي يستولي عليّ ويحيلني ببغاء تكرر المحفوظات. تطرّفتُ في الولاء للمبدأ حد اقتراف الشرور. ارتكاب الجرائم.

لا أنسى تلك المظاهرة الكبيرة. خرجنا نحتج على دخول قوات الردع في لبنان. خرجنا من المقر وتجمعنا في أول شارع الرشيد. آلاف الموظفين والطلبة احتشدوا هناك. معنا رفيق ذو صوت جهوريّ. عرفت فيما بعد أن لكل جماعة هتّافًا عالي النبرة. مهمته أن يصرخ

في المسيرات. يكتبون له الشعارات ويُلقيها. يتسلق الأكتاف ويقول والحشد يقول وراءه.

فجأة وجدت الهتّاف يحتضنني. تصوّرت أن دوخة أصابته. أسندته ليقف معتدلًا لكنه صاح عليَّ طالبًا أن أرفعه فوق كتفيَّ. تسلّقني لأنني الأطول قامة. ركب فوقي ودلدل ساقيه على صدري. راح يهتف بصوت مزلزل: «أسد أسد في لبنان... أرنب أرنب في الجولان». يعيد السائرون كلماته مع إيقاع التصفيق. أعجبتني المفارقة. يكررونها المرّة تلو المرّة. الكل يصرخ وأنا أضحك. يهتفون وأقهقه. والقرد الذي يركبني يخنق رقبتي لكي أرعوي. نخخت مثل بعير غاضب وأسقطته عني.

في بلادنا نرث الدين من السلالة. نتلقى بصمته على شهادة الميلاد. أبوك مسلم أنت مسلم. أبوك صابئي أنت صابئي. مسيحي، أنت مسيحي. تكبر داخل سجنك المهيأ لك من قبل أن تكون نطفة. ترافقك قضبانه حتى طلوع النَّفَس الأخير. جاءت العقائد السياسية فصارت دينًا ثانيًا لا حياء فيه. أبوك شيوعي أنت شيوعي. تولد في أسرة بعثية تصبح بعثيًّا. المشكلة أن يأتي أحدهم إلى الدنيا في بيت يتفادى السياسة. يخشى مآلات الانخراط فيها. يمشي أفراده جنب الحائط. يكبر على الهامش والكل يطارده. لا أحد يتقبله بدون لون. لستَ معنا إذًا أنت ضدنا.

اللعنة على الأحزاب!

خرّبتْ بيت الوطن. خيّل إليَّ، في لحظة حماقة، أن علاجنا

سيكون على أيدي هؤلاء الأغراب. في بازل. عقولهم أكبر من عقولنا ولا يخضعون للانحيازات. العلم عقيدتهم الوحيدة. وجد علماؤهم حلًّا للهوس والتعصّب. نتداوى ونعود وقد غسلنا عار تخلفنا. يمكن لأفكاري هذي أن تكون أولى علامات نجاح العلاج.

خافت دلاله من تحولات طباعها. لن تنكر إلهها الذي عاشت تبشّر به. كانت أول من امتنع عن تناول البونبونات الخضراء والبرتقالية. لم تخبرنا بقرارها لكننا فهمنا. رأيناها تدير رأسها وتستبقي الحبوب في يدها. وكنت اتفقت وبشيرة أن نفعل مثلها. نتفاهم بالنظرات ونحن نتظاهر بالابتلاع ونحن نخفيها في اليد أو نبصقها في المنديل. بصماتنا الأولى أقوى من المحو. نتمسّك بتراكيبنا الأصلية. كوارثنا العزيزة التي لم نعد راغبين في أن يعبثوا بها. لن تمتدّ يد إلى شيفرات عقلي.

أنا كفيل بندوب الماضي. أداويها بأنواع التكفير. بالخمرة. بالحب. بالتطوّع في بيوت المسنين. عضلاتي ما زالت قوية وعزمي ثابت. أرفع العجوز التي باتت هيكلًا عظميًّا وأضعها على الكرسي المتحرك. أدفعها حتى الحديقة وأجلس معها في الشمس. يفكك الدفء تيبّس كفيها. أروي لها حكايات بلغتي. أغنّي الأبوذيات ولا أنتظر تجاوبًا. أدور معها بالكرسي نطارد تحولات الشفق. فقدت السيدة سمعها وتكتفي بهزّ رأسها. رأسها دائم الارتعاش بسبب الباركنسون. يكفيني امتنان مضمر في عينيها.

حتى تلك الخطايا الثقال الجاثمة على ضميري، سأنوء بحملها دونما اعتراض. سور الصين كادود يحتمل الضيم. كيان قدّ من صخر. لم يقدر عليه سوى عشق تعتّق نبيذًا. عشت عمري أحسب بثور آثامي وأعانيها. يحكّني ضميري. في رأسي صرّة سوداء رابضة. أضعها في كفة الميزان وأترك الكفّة تنوء. وأضع في الكفّة الثانية عملي الصالح الوحيد. انتشال بشيرة من الوحوش أمثالي. رفاقي. أرى الميزان يعتدل أو أوهم نفسي. بقي حبها معي لأنه فضيلتي.

ولسنين، بقيت مستندًا إلى صورة امرأة مستباحة معصوبة العينين. دعامة واهية صنعتها عمودًا راسخًا. من هواي ومن ظنوني. أعززها بالتذكر كلما شابها ضباب. أستعيد كل حركة من حركاتها وهي تمشي وأنا حارسها. ألحق بها إلى الاجتماعات مع رفيقاتها. الوكر المشبوه الذي جمعها بوغد تخلّى عنها. بشيرة كانت الحَسَنة التي بها سأقابل ربي، لو قابلته.

في السرير

تلفظهم المدينة دونما تسرّع. أيامهم فيها باتت معدودة. ما كان على الحاتمي أن يمتنّ للقدر الذي أعاد اجتماعه بها. انحرف قطاره عن السكة وهو في آخر الرحلة. توهّج قلبه وقد يعود إلى الانطفاء. لن يحتمل مرارة جديدة في فمه. ليس من عادة سور الصين العظيم أن يستسلم للزمان يشخّ عليه. لا بد من الحسم. سيفتح قوسًا نحو أمل آتٍ أو يغلق القوس ويضع بعده نقطة لا رجعة فيها.

حفظ شوارع المدينة القريبة والبعيدة. غادرته رغبة الاكتشاف. يلزم غرفته مع المغيب لا يغادرها. يتلهى بأشرطة الأغاني وكتابة خواطر أدبية فارغة المعنى. بازل جعلته شاعرًا بدون ديوان. يرقد ويتمنى ألا يستفيق. لم تعد آدميته تستقيم إلا في وضعية الرقاد. يطفئ النور ويغمض عينيه ولا ينام. فكره في الجانب الآخر من المبنى. خلف الجدار الزجاجي. يهمّ بالذهاب إليها ويتراجع. سبقته بشيرة.

كان في غرفته، بعد العشاء، حين سمع نقرة خجولًا. خربشة

ظفر على الباب. اليابانية لا تأتي بدون موعد والهندي كان قد رحل. فتح ورآها. يا مساء الخير.

- تفضلّي خانم.

- ما زال بيننا كلام.

تفرّجت على الغرفة ووقفت عند النافذة. سمعها تقول ما معناه أنها تدين له بالشكر. قدّم إليها الكرسي الوحيد لكنها استدارت وجلست على حافة السرير. بقي واقفًا غارقًا في عرقه. أشفقت عليه من ارتباكه. أخذت يده ودعته إلى أن يجلس بجوارها. هو وهي على فراشه. يسمع أنفاسها وتسمع لهاثه. زمن مستقطع مذكور في الأسفار والأناشيد. يعيده إلى صباه. كل أغاني الحب واللوعة والسهاد تصلح لتلك اللحظة. كلماتها كُتبت لهما فحسب. للساكتين غير الطامعين في الكلام. صمتهما تمرة ناضجة حلوة تُستحلب امتصاصًا.

خلعت حذاءها ومشت إلى الثلاجة الصغيرة. عادت بقنينة ماء. تتحرّك وكأنها في بيتها. غرفة نومها. جهّزت خطابها وتمرّنت عليه. لن أشكرك على حمايتي وأنا في أضعف حالاتي. بل لما حدث بعد تسريحي. كنت تعرف ولم تتكلم. سكتَّ على ما قيل ولم تفضحني. أنت من يسّر لي سبيل الهرب. السفر. لا تنكر. كان رفاقي يطوبونني قديسة وأنا الخاطئة. أتآمر معهم ضدك وأنت تجازف. تتحمّل مخاطر العقاب. كل الاحتمالات كانت واردة وأنت لا تبالي. تأمر المحقق أن ينفّذ ولا يناقش. فضحتك لهجتك.

- كيف عرفتِ من أكون؟

- عرفتك من البداية.

رأته في الجوار وهي في أول طلعتها. يستحيل أن يمرّ في شارعهم واحد مثله مرور العابرين. كبرتْ وكان يتنقل وراءها. مطاردة العاشق لا شرطي الأمن. كأنه يحرسها.

- أتريد جرعة ماء؟

لم يشعر بنفسه قويًّا مثلما شعر وهو يستمع إليها. لم يتصوّر نفسه هشًّا إلا وهو بين يديها. أخذ كفيها ومسح بهما وجهه. قبّل الراحتين والظهر. اقترب منها وتشمّم مفرق شعرها. دار بإبهامه حول الشامة بين الحاجبين. مالت إليه وتعانقا عناقًا هو الالتحام. يعشقها وهي عطشى إلى رجل. لا تدري إن كانت تحبّه أو تشتاق لحمًا يدفئ لحمها. يكفيها أنه يحبها. أن تتحسّس صدره وساعديه. ليس خيالًا في ليالي الأرق ولا رغبة غير ناجزة.

خلع ثيابه فأدارت وجهها:

- ماذا تفعل؟

- ألبس الدشداشة لأكون على حقيقتي.

رفضت أن تنزع قميصها. طلبت أن يطفئ المصباح. اندسّت تحت الغطاء كما هي. بثيابها. لم يشاهد عريها واكتفى بما تمنح. فتات بشيرة وليمة ولا بأس من الحب المستور. يرسم الخيال التفاصيل ويترك للملهوف أن يملأ الفراغات.

تمددنا والنور مضاء. ثم والنور مطفأ. تضحك في العتمة وهي تسمعني أهمس أن الضحيّة باتت في أحضان جلّادها. نترك وراءنا المصطلحات السقيمة وننشغل بما نحن فيه. رجل وامرأة فحسب يجتمعان وبينهما ملاك. نركن السنوات جانبًا ونجرّب الحب المتأخر. نخفق أو ننجح. مرّت علينا سنوات عجاف وجفاف. نسينا فنون المعاشرة. لكن الحب مثل السباحة وركوب الدراجة. مهارة يتركها المرء ولا ينساها. يغطس في الماء ويحرّك ذراعيه وساقيه ويعوم. يحتويه الحضن الظامئ.

مقهى الشقاق

في مقهى بغداديّ شاحب البياض، آخر شارع الرشيد، قبل وزارة الدفاع بقليل، جلس الملك غازي يلعب الشطرنج وحيدًا. يدير ظهره لعبد الكريم قاسم. ينفض صدام حسين رماد غليونه في إستكان نوري السعيد. تغنّي سليمة باشا وينهرها يونس بحري لأنها تنشّز. يسير الزمان على الرصيف ويراهم من وراء الزجاج. كلٌّ منهم مستعدّ للتضارب بالكراسي. الرفيق فهد. السيد الصدر. المُنشق السعدي. الوزيرة نزيهة. القاضي المهداوي. يحيط بهم آخرون يحرضونهم. يصبون الزيت على نار الخصومة. لا غشاوة على عينَي المشاهد ولا مونتاج يتلاعب بالصور، يقصقص ويلصق كما يشاء. كان مقهى الشقاق صهريجًا تتأجج فيه العداوات. يصبح اللامعقول معقولًا. تنبجس سواقي الدم لترفع من تلوّث دجلة وعكرة الفرات. تسمّم أسماك الشبوط وتلوي أعناق النخيل.

على منصة في صدر المقهى جلس حكواتيّ ذو عباءة مذهّبة. قصّخون شعبيّ عالي الجناب. يقرأ مزاميره عليهم:

«أنا السماء التي رفعتم إليها العيون
تبتهلون وتتضرعون
وتبذلون الأدعية والأمنيات
وصلتني صلواتكم الحارة والباردة
طلباتكم المكرّرة
رجاءاتكم المريرة
دموعكم السخية
تلك التي لا تستحي
سماؤكم الملعونة أنا
أستقبل وأراقب
أراجع وأحفظ وألعن
أراكم تقسمون وتخلفون
تعقدون النوايا وتخلعونها مع النعال
اغربوا عن وجهي
فقد بلغ سأمي منتهاه
حلّ فيّ اليأس المقيت
ألا تستحون؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلهم صاروا تحت التراب. تبدد رمادهم في الرياح الأربع. ذاكرة عنود تستخرجهم من لحودهم وتلملم غبارهم. تعجنه بحفنة

من ماء خُلّبيّ. تسحب كراسي الحكم من تحت مؤخراتهم وتجلسهم على مقاعد المقهى. من مات منهم خلّف ألفًا مثله. لا مهرب بعد الحريق من تداخل الأزمنة. ينفجر بركان ينبئ بزلزال. تنخسف الطوابق وتدمرّ ما تحتها. لكل طابق أوان. نساء ورجال كانوا مسحوبي الذاكرة، منومّين ثم استفاقوا. يعبثون بالبناء الشاهق. يشرعون بوابته للطارئ الغريب. يخسرون ما كان فردوسًا على الأرض. في طغيانهم يعمهون.

يوم زكريا

لم يُكتب للقصص العاطفية أن تنمو في وعاء من باغة. لن تبلغ خواتيمها في كشتبان. يحتاج الحب الغافي وقتًا ليصحو ويتثاءب ويغسل وجهه وأسنانه. يخرج إلى الحديقة يقطف رازقيّة. يسرق فسحة ليتمتع بقهوة الصباح.

لا يكفي صيف سويسري قصير لاختمار العجينة الراكدة. تبقى الحكايات مفتوحة لخريف مقبل أو شتاء. هناك مدن أخرى، بعيدة عن بازل أو قريبة، يمكن أن تصلح لاستواء الأشواق. سيفكر سور الصين في اقتراب الكهولة. وستراقب بشيرة تجاعيدها الصغيرة كل يوم. مصيران مكسوران يلعبان في الوقت بدل الضائع. يحتاجان ترميمًا.

وستركض سندس في حقول بكر. تقفز فوق سواقٍ محفوفة بأزهار دوّار الشمس. يحاول حلّال العقد أن يلحق بها ولن تنتظره. تمضي نحو حضن أكثر أمانًا. رفيق خفيف من تعقيدات تلك البلاد.

لا تتردد في أذنيه أصداء الطاخ طاخ. تعلّمت الدرس من دموع أمها. لن تحبّ عراقيًّا ولو كان نبيًّا.

سيبقى البابليّ والآشوريّة يتشاكسان حتى يوم الدين. تأخذ دلاله صينية طعامها وتبحث عن غزوان. تتعمّد أن تجلس قبالته في المطعم. تناقشه وتحاججه في عقيدته. تقرأ عليه تعاليم يهوه.

- صدقّيني يا أختي. لن تأخذي مني حقًّا ولا باطلًا.

- هل يظنّ عقلك المتخلّف أنني أدعوك إلى ملّتي؟

- ملّتي وملّتك لا فرق.

العقائد والملل كلمات متقاطعة للتحايل على فاجعة الموت. وقد دعاهم الدكتور بلاسم إلى حفل وداع. في نفسه مرارة وارتياب. فشل في إنجاز مهمته وفق الخطة المرسومة. بات يشكّ في علومه والكتب التي أرهقت عينيه. سوّلت له أن النفس البشريّة فرن يعمل بالمويجات القصيرة. مايكرويف. يضع فيه ذكريات مجمدة فتخرج بعد ثلاث دقائق ساخنة صالحة للالتهام. لا لقمة تؤكل قبل أن تُمضغ بالأسنان الأصلية أو بأطقم السيراميك. وهؤلاء الأربعة ما زالوا يضرسون. اقترب منهم وصادقهم وتعلّم منهم وعرف قدر نفسه. حتى البنفسج يشيح بعينيه.

يعجب حلّال العقد حين يراهم متصالحين. كأن كلًّا منهم لم يكن يحمل خنجره في حزامه لذبح الآخر. يشربون النسكافيه على مهل ويأكلون كعك البريتزل. يتذكرون نفس الأغنيات ويفرقعون

الأصابع. يسخرون من الأناشيد الوطنية وهم يستعيدون كلماتها بوجع. «يا كاع ترابك كافوري». على خبراء مصانع الدواء أن يرفعوا الحنين من قائمة الأمراض. يضيفونه إلى صيدلية السموم.

سألتني بشيرة في تلك الليلة الخرافية:

- ماذا بعد؟

- أن نبرأ من حزبينا.

تعجّلتُ في الامتنان للقدر الذي أعاد اجتماعي بها. لن يقبل سور الصين أن ينتهي حائط مبكى. أذهب إلى حفل الوداع وأنا مخمور. القاعة كئيبة في ضوء الغسق وكل منّا يتحامل على شجنه. ليس لأحد شهيّة الاقتراب من طاولة الطعام. أرفع يدي وأطلب الإصغاء.

- هيا نحتفل على النهر.

لم أنتظر جوابًا. كانوا قانطين ينتظرون دعوتي. قامتي هي السارية وهم يمشون ورائي. نعبر الشارع ونقطع دغلًا صغيرًا. نصل إلى ضفة الراين ونتوقف للراحة. هناك عند الجرف تتفتّح الأنفاس المحتبسة. النهر مفتاح الفرج. غاسل الكروب العابرة. لن ترفع من منسوبه دمعة ولا دمعتان. لن يفيض النهر الجرمانيّ في بازل. كنا نذهب إلى دجلة في الأماسي نستودعه شكاوانا. يبشّ النهر لمقدمنا ويحتفل بنا. ندسّ همومنا تحت الطمي وننساها هناك. نمسح الرؤوس بمائه وننفضها مما اعتراها. ليت نهرهم يتسلّم الوصية من نهرنا العظيم.

نزعت معطف المطر وفرشته لبشيرة. جلست سندس على صخرة ناتئة. بلاسم يحوم حولها وهي عنه لاهية. اقترب غزوان من الضفة حتى خشينا عليه من الانزلاق. رفع صوته لتذكيرنا بأن الذي خلق جعل من الماء كلّ شيء حيّ. مؤذن مربوع القامة تنقصه مئذنة. يخرج من جيبه حفنة من الكبسولات ويرميها بعيدًا في النهر. يطوّح بها بأقصى ما يستطيع من قوّة.

هللّت دلاله وأخرجت بونبوناتها المخبأة في حقيبتها. هلّلت ورمتها بدورها في الماء. سمعنا بشيرة تنادي:

- هذا يوم زكريا!

دمعت عينا سندس وأمها تمارس الطقس العراقي المتوارث. يومٌ تُقدّم النذور. تُنصب موائد الزينة والحلويات. تُشعل الشموع وأعواد البخور. تنثر أوراق الآس على صينية الطعام. يحتفلون بالليلة المباركة التي تلقّى فيها النبي زكريا بشارة ولادة ابنه يحيى. شيخ في الثانية والتسعين ترزقه السماء بولد. صار الطقس رفيقًا للعواقر وأملًا لكل يائس.

نزلت حبوب الدواء فوق صفحة الراين نجيمات ملونة خفافًا. طفت ثم غابت. اختفت في اللجة وسحبت مفاعيلها من رؤوسنا. أطلقت سراحنا لكي نعود مدمني عقائد أو قضايا أو خرافات. لاجئين حياديين قلّمت الألفة أظفار تعصّبهم. يعيشون لصيف واحد غربة تجمع الأضداد وتلمّ الشتات. إنها بازل.

عقدت بشيرتي منديلها على غصن أخضر ودفعت به إلى النهر. تركته يسري مع التيار. وكان بلاسم يلتقط لنا الصور وغزوان يقرأ التعاويذ. أردت أن أصاحبه بموّال ريفي وخشيت أن أفسد الجو. ثم رأينا ما لم نتوقّع أن نراه في الماضي من أعمارنا. دلاله تلوّح بوشاحها المتعدد الألوان وتغني بلغتها:

«هلا ليت

مَخ خُبَخ سودانا

هلا ليت

مخ بالخ مرخمانا

ليت كو دُنييه ليلا ويتا

مخ ديخ خمتا

بي لبّي شليتا».

صفّقنا لها مبهورين بحلاوة صوتها. قالت إنها أغنية للمغني المعروف آشور بيت سركيس. لم نسمع به. فنان شهير في بلادنا ولا نعرفه. وطن تقسّم حسب خطوط العرض. شماله ليس له وجنوبه يجترّ بؤسه. حاولت دلاله أن تترجم لنا الكلمات ولم نكن نحتاج ترجمة. انفعالها نقل لنا المعنى. لا أعرف الآشورية لكنني فهمت أن خُبّخ هي حُبّك. ومرخمانا مشتقة من الرحمة. ولبّي هو لبّي، يعني قلبي.

لغاتنا الأم إرثنا من الأجداد. وها هي سليلتهم تواصل التلويح بوشاحها. تدبك ونلحق بها. نتماسك بالأيدي ونتبع خطواتها

ونقلّدها. وكنت أرقص معهم كما لم أرقص من قبل، مشحونًا مثل طوربيد معبأ بالوقود. تنقصني خمرة تديم بهاء الأمسية. تعينني على وضع نقاطي فوق حروف بشيرة. اليوم نحن هنا وغدًا من يدري؟

وعدتني وسأعيش على الوعد. يعود كل منّا إلى حيث جاء. يمكن له أن يرمي تجربة بازل في حاوية الذكريات. علاجاتها لم تخترق جلده. قاوم ليبقى متعلقًا بالدودة التي في الدم. تسري في الشرايين. نسيانها يعني ضياعه. عمر مضى هدرًا في الجري وراء قضية تسبقني فلا أبلغها. أطاردها ولا أفرّط فيها ولو كانت خيالًا ومن بنات الأحلام. إذا اضمحلّت ينتفي شرط وجودي. مناضل بدون قضية عيد بدون هلال. سيجتمع المشرفون علينا ويضربون رؤوسهم في الحيطان. أنفقوا الكثير ولم يربحونا.

وسيبقى صيف بازل مريحًا مستريحًا ابن أكابر. لن يُغرق مطره أرصدة بنوكها ولا أبراج مصانع الأدوية. مدينة تحمل مظلّة ومصانع محروسة من الجواسيس. لا تنتج دبابات ونفاثات وقنابل نووية. أسلحتها تُحيي ولا تُميت. مررنا بها وراوغناها. فاوضتنا على عقائدنا وقَلَبْنا عليها الطاولة. فشلتْ في أن تسلبنا عقولنا. ستذكرنا كريستينا وتصدح بالموّال: «بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا». جئناها مجانين ونغادرها أشدّ جنونًا. عناد صُنع في العراق. احذروا التقليد!

سندس بعد السقوط

شممتُ العراق في أحاديثها ولم أكن أعرف وطني. تلتمع عينا أمّي حين تذكر بيتهم في دور السكك. لا أفهم لمَ تبكيها الأغاني. دخل الأميركان بغداد فتوقفت عن البكاء وسرد الماضي. أصيبت بشيرة بالشرود. تتذكّر أسماء أصحاب قدامى وتبحث عنهم في الأخبار. ولم يكن عمّي حاتم بأهدأ بالًا. تقوقع داخل نفسه مثل كائن مُصاب بالتوحد. امتنع عن الكحول بأمر الطبيب وفقد بهجته. زاد وزنه كثيرًا. جملٌ سِنامُه في كرشه. لم يعد يتكلم كثيرًا مع زوجته ولا معي. عيناه على «الجزيرة» وتسليته الوحيدة الاهتمام بالحديقة. يسمّيها حديقة وهي شرفة عرضها متر ونصف في الطابق الحادي عشر من مبنى لذوي الدخل المحدود.

حتى جاد، طفلي الوحيد، حبيبهما المدلّل، لا يفهم كيف تحوّلت الشقّة الصاخبة إلى بئر للسكون والكآبة. اجلس يا جاد. لا تلعب بالكرة يا جاد. اتركنا نسمع الأخبار يا جاد. خذي ابنك لينام يا سندس. ألملم حاجيات الولد وأعود إلى بيتي. ما عاد العشاء على

مائدتهما ساعة من لذيذ العيش. كانت أمّي تتحرّك زمبركًا بين المطبخ والسفرة. تودعها عينا زوجها وتستقبلانها بولهٍ، في الرواح والمجيء. كأن روحه أصيبت بالعمى.

جئت بغداد مثل سائحة بجواز سفر أجنبي. عشت شبابي في مدن باردة. كبرت ولي بيت وزوج وطفل ووظيفة. لا أشكو من شيء. سوى أن استقراري الظاهر يحجب فزعًا من نشأة مشتتة. بيروت. عدن. دمشق. فرانكفورت. أسماء رمادية وصداقات مؤقتة. أب قديم وعمّ جديد.

لم أعرف مدينة أمّي قبل أن أزورها في ذلك الخريف المضطرب. مذيعة ومترجمة مع فريق تلفزيوني من «آرتيه». تنقطع الكهرباء ونسمع هدير المحوّلات حيثما نذهب. يؤرخ العراقيون لأزمانهم «قبل السقوط» و«بعد السقوط». مثلما يؤرخ الألمان لما قبل الحرب وبعد الحرب. نخلات بسعف متهدّل وصحون لاقطة فوق المباني، أراها من نافذتي العالية في الفندق. كيف تشتاق أمّي إلى النوم فوق سطح من هذه السطوح القذرة؟

ذهبت مع المصوّر إلى ملعب الشعب. أوصتني أمّي أن أزور قبر مانويل، زوج دلاله. بقيت تتصل بها بعد العودة من بازل. تدعوني السيدة الآشورية إلى الإقامة عندها حين أزور مدن الشمال. زوجي من هناك. تعارفنا في تجمّع لأحزاب الخضر. أظن أنني أحبطت آمال بشيرة حين لم أتزوج عراقيًّا. يا إلهي. ليس ذلك الطبيب الببغاء. وضعت على الضريح زهرة صفراء.

كل شيء هناك أصفر مغطى بالغبار. زميلي المصوّر يأخذ وقته في التقاط الصور وأنا أنتظر. لا أعرف ماذا أفعل وكيف أصلّي. أقرأ الكلمات المحفورة على شاهد النعش. أي رحمة تُرجى في هذا البلد.

فتّشت عن دائرة التقاعد. أراد عمّي حاتم أن أسأل له عن تقاعده. طلب مني الاتصال بواحد يمكن أن يساعدني. صديقه القديم غزوان البابليّ. كنت أذكر ملامح الرجل من أيام بازل. قصير ممتلئ كثير الهذر. لم أتصوّر أنه وصل إلى تلك المواصل. جاه ومنزل على النهر وسيارات وحراس. تعبت في الحصول على موعد للقائه. توقّعت أن يعترض على شعري المكشوف. أخذت معي وشاحًا في حال إذا. لكن الرجل السبعيني استقبلني بكثير من اللطف والاهتمام الصادق. يخاطبني ولا يتطلع إلى وجهي. عينه على السبحة في يده. يتكلم على إيقاع طقطقاتها.

- وإذًا فقد تزوجا؟

- نعم. كان يعرفها من قبل ولادتي.

- كيف أحواله؟

- هموم العمر ومتاعب الصحة. يأمل في تمشية أمور تقاعده.

- أي تقاعد؟ حاتم مشمول بقانون الاجتثاث.

مشيت في الصالحية أبحث عن دور السكك. الخراب كبير والمزابل تنافس الحدائق. قصدت المدرسة التي درست فيها أمّي

عند انتقالها من كركوك إلى بغداد. رؤوس الطالبات في الشوارع مقمّطة بالأبيض. حلوات بفساتين طويلة. نظراتهن فلفل.

حاولت الذهاب إلى كركوك والتفتيش عن قبر جدّي حسّون. لم يسمح الوقت. تراكمت القبور وضاع الحساب. بلد مقسوم حسب المذاهب والقوميات. زعماء متصالحون في التليفزيون متخاصمون وراء الكاميرات. ديمقراطية عرجاء تم اختراعها ببراعة لكي يستمر البؤس. من له يد في الحكم ينهب بلا رحمة. سيارات مزدحمة وناس كثيرون في الشوارع والأسواق والمطاعم. الكل يأكل ويتفنّن في عرض الفاكهة والطعام. شعب ذو أفواه تأكل لتسكت. أسنان تمضغ خيبتها. يغور النهر وتغرز أسماكه في حلقات حول نار الشواء.

الرائحة رهيبة والجو لطيف. أجواء بعيدة عني أعرفها من التصاوير. أقول لنفسي إنني أتكلم لغتهم ولست غريبة. عندما يكبر جاد قليلًا سأتي به إلى هنا. يمكنني استئجار بيت واستقبال أمّي. سيجد زوجي الأمر مسليًا. بيت لتمضية عطلات رأس السنة في الشمس، لا الجليد.

لا أعرف شيئًا عن بلاسم. كان طيبًا وابن حلال. ما زلت أحتفظ بتذكرة الدخول إلى معرض بيكاسو. كتب لي عليها: «إلى صاحبة العينين البنفسجيتين». أحكي لزوجي عنه وعن مهمته المستحيلة في بازل. دورة صيفية لتنظيف الجماجم من معتقداتها. يهزّ رأسه ولا يستغرب. مواطن نرويجي سعيد يؤمن بالعلم، لا بسواه.

يتقدّم الطب وتصبح الذاكرة مرتعًا لمن هبّ ودب. لا حاجة إلى أمثال حلّال العُقد، متخصصين في سبر أغوار النفوس. الهواتف في الأيدي تؤدي المهمة. تقرأ خواطرك وتأتيك بما ترغب. أما الأغبياء فمطرودون من الجنّة. يأخذ الذكاء الاصطناعي أماكنهم. ينجز العمل بأفضل مما ينجزون. تركض دول إلى أمام وتحبو دول. تتأخر وتتناحر وتستنجد بالغيب. ماضيها فخّ لمستقبلها. جماعات إرهابية ومافيات وأحزاب جديدة أخطر من القديمة.

كم طنًّا من حبوب خضراء وحمراء وقرمزيّة تطرح مصانع سويسرا لإطفاء هذا البركان؟

(انتهت)

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشكر واجب لأهل المحبة:

علاء الدين حسين.

ريم كبّة.

ساندرا شمعون.

صادق الطائي.

تمددنا والنور مضاء. ثم والنور مطفأ. تضحك في العتمة وأنا أهمس أن الضحيّة باتت في أحضان جلّادها. تركنا وراءنا المصطلحات السقيمة وانشغلنا بما نحن فيه. رجل وامرأة فحسب يجتمعان وبينهما ملاك. نركن السنوات جانباً ونجرّب الحب المتأخر. نخفق أو ننجح. مرّت علينا سنوات عجاف وجفاف. نسينا فنون المعاشرة. لكن الحب مثل السباحة وركوب الدراجة. مهارة يتركها المرء ولا ينساها. يغطس في الماء ويحرّك ذراعيه وساقيه ويعوم. يحتويه الحضن الضامئ.

*****

"صيف سويسري" هي حكاية أربعة عراقيين يلتقون في بازل لتجربة عقار لعلاج الإدمان العقائدي. أحزابهم أعطبتهم ودمّرت بلدهم. وكانت المدينة السويسرية تقدّم إليهم البونبونات وتعيد وصل حبّ مؤجل.

إنعام كجه جي: صحافية وروائية عراقية ومخرجة أفلام وثائقية. وُلِدت في بغداد ودرست الصحافة في جامعتها. تُقيم في باريس وتعمل في مجال الصحافة. صدر لها: "لورنا، سنواتها مع جواد سليم" – سيرة روائية. "كلام عراقيات" – مختارات مترجمة إلى الفرنسية من نصوص الحروب، و"بلاد الطاخ طاخ" – مجموعة قصص. ومن الروايات: "سواقي القلوب". "الحفيدة الأميركية". "طشّاري". "النبيذة". اختيرت الروايات الثلاث الأخيرة في القوائم القصيرة لجائزة الرواية العربية وترجمت إلى عدة لغات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنعام كجه جي

صيف سويسري

9 789921 808223
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com